

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية وزارة التعليم العالي
والبحث العلمي جامعة مولود معمري تيزي وزو
كلية الآداب واللغات قسم اللغة العربية و آدابها

مذكرة التخرج لنيل شهادة الماجستير

الفرع: اللغة العربية وآدابها تخصص: نقد و بلاغة

بيانات الشعرية العربية من خلال مقدمات المصادر التراثية

إشراف الأستاذة :
د. آمنة بلعلى

إعداد الطالبة :
نورة فلوس

لجنة المناقشة :

- 1- أ د صلاح عبد القادر ، أستاذ التعليم العالي، تيزي وزو رئيسا
- 2- أ د آمنة بلعلى، أستاذة التعليم العالي، تيزي وزو مشرفا ومقررا
- 3- أ د الوناس شعباني، أستاذ محاضر صنف أ، تيزي وزو ممتحنا

تاريخ المناقشة

2012 /06/16

مقدمة

مقدمة :

إن التراث العربي كثيرا ما كان مادة لأبحاث متعددة ، أملا في سبر أغواره واستكشاف درره التي لا تنضب؛ فارتأيت أن أكون منهم وأشارك في إبراز قيمة هذا التراث، من خلال دراستي هذه الموسومة بـ "بيانات الشعرية العربية من خلال مقدمات المصادر التراثية " بناء على اقتراح من الأستاذة المشرفة الدكتورة أمنة بلعل، وقد لقي ذلك قبولا في نفسي فقبلت الموضوع نظرا لتعلقه بمادة التراث العربي خاصة حينما ارتبط الموضوع بالدفاع عن مؤلفي كتب التراث العربي إذ كثيرا ما يتهم هؤلاء بممارسة المنهج أكثر من التنظير له حيث يرى الدارسون بأن جل أعمالهم تعتمد الجانب التطبيقي وهذا ما يؤدي إلى طرح الإشكالية التالية :

هل كان المؤلفون العرب القدماء على وعي نظري بما كانوا يقومون به من إجراءات تطبيقية في مؤلفاتهم ؟ وهل ظهر هذا الوعي من خلال مقدماتهم لتلك المؤلفات ؟ ومنها تتفرع مجموعة من الأسئلة :

✓ هل كانت المقدمة لديهم عتبة من عتبات المتن وخطابا واصفا لمضمون الكتاب المؤلف؟
✓ وهل كانت تلك المقدمات بمثابة بيانات تعلن عن ميلاد نظرية أو رؤية نقدية ؟
✓ وما مدى وضوح الرؤية المنهجية من خلال مقدمات أمهات الكتب التراثية ؟
ومن أجل الإجابة حول هذه التساؤلات، سأحاول من خلال هذا البحث تحليل عينات من مقدمات بعض المصادر التراثية في المشرق والمغرب بغرض البحث عن بيانات للحجاج والوصف في إطار المنهج التداولي إذ أن اللسانيات التداولية أصبحت أظهر فروع اللسانيات، بالإضافة إلى اهتمامي بتقصي التراث العربي ومحاولة الكشف عن أغواره من خلال دراسة تطبيقية لمجموعة من المقدمات باعتماد الوصف والتحليل والمقارنة. وقد اعتمدت لذلك مقدمات كل من المؤلفات الآتية :

✓ طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي.
✓ الشعر و الشعراء وتأويل مشكل القرآن لابن قتيبة.
✓ عيار الشعر لابن طباطبا العلوي
✓ نقد الشعر لقدامة بن جعفر.
✓ المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع للسجلماسي
✓ كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري.
✓ دلائل الإعجاز للجرجاني
✓ زهر الآداب لأبي إسحاق القيرواني.
✓ العقد الفريد لابن عبد ربه.
✓ الذخيرة لابن بسام الشنتريني.
وقد بدأت بحثي هذا بمدخل نظري مختصر أشرت فيه إلى :
✓ مفهوم البيان وقد أشرت من خلاله إلى المعنى اللغوي والاصطلاحي وكيف انتقل مفهومه إلى مجال الأدب.

✓ المقدمة عتبة من عتبات النص أشرت فيه إلى مفهوم المقدمة باعتبارها خطابا واصفا لكتاب المؤلف وعتبة من عتباته التي تسهم في توجيه القارئ إلى مضمون الكتاب ومنهجيته وكثيرا ما تشير إلى مكانة الكاتب وتقصح عن مقصده في التأليف.

✓ العنوان عتبة من عتبات النص تناولت فيه مفهوم العنوان باعتباره نصا موازيا أو عتبة من عتبات الكتاب يعين القارئ على الولوج إليه وسبر أغواره مع تحليل بعض عناوين المؤلفات المعتمدة في البحث.

ثم قسمت البحث إلى فصلين، حيث كان عنوان الفصل الأول " بيانات الوصف "، وقد تناولت فيه ثلاثة مباحث هي :

✓ " قضايا الشعر والشاعر " تناولت فيه أهم القضايا التي أفصح عنها المؤلفون والمتعلقة بالشعر والشاعر وهي :

1 - الشعر :

❖ ماهية الشعر وقد تناولت فيه أهم القضايا التي أثارها المؤلفون حول مفهوم الشعر وأدواته وعلاقته بالمتلقي.

2 - الشاعر :

❖ وقد تناولت فيه مختلف الآراء التي تناولت الشاعر بالبحث والتحليل.

✓ أما المبحث الثاني فيتمثل في " قضايا أثارت الصراع " وقد أشرت من خلاله إلى أهم القضايا الشائكة التي اختلفت فيها الآراء بين نقاد التراث العربي التي أثارها المؤلفون وأعلنوا عن مواقفهم إزاءها من خلال مقدماتهم وهي :

❖ الصراع بين القدماء والمحدثين .

❖ ثنائية اللفظ والمعنى .

❖ السرقات الشعرية .

❖ المركزية بين المشرق والمغرب.

✓ وفي المبحث الثالث الموسوم بـ " هيمنة النسق المنطقي في التصنيف والتأليف " وقد تجلت هذه الظاهرة من خلال مقدمة " المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع " حيث جمع بين المنطق وعلم البلاغة العربية.

ومنه انتقلت إلى الفصل الثاني الذي عنوانته بـ " بيانات الحجاج " وقد تناولت فيه ثلاثة مباحث هي :

✓ مقصد الدفاع عن القرآن الكريم تناولت فيه أهم الحجج والبراهين التي اعتمدها كل من ابن قتيبة في مقدمة كتاب " تأويل مشكل القرآن"، وعبد القاهر الجرجاني في مقدمة كتاب " دلائل الإعجاز" ثم قارنت بين استراتيجية الإقناع بينهما .

✓ تبرير الموقف النقدي تناولت فيه تبرير الموقف النقدي لدى كل من ابن قتيبة في مقدمة كتاب " الشعر والشعراء " وابن طباطبا العلوي في مقدمة كتاب " عيار الشعر " .

✓ تبرير التأليف والتصنيف

❖ تبرير التأليف وقد تناولت فيه استراتيجية الحجاج لدى أبي هلال العسكري في مقدمة كتابه " الصناعتين"

❖ تبرير التصنيف وقد تناولت فيه حجج التبرير التي اعتمدها المصنفون المغاربة من أجل تبرير فعل التصنيف وذلك من خلال مقدمات : زهر الآداب لأبي إسحاق الفيرواني، العقد الفريد لابن عبد ربه والذخيرة لابن بسام الشنتريني.

وبعد هذين الفصلين خلص البحث إلى خاتمة تناولت فيها أهم النتائج التي توصلت إليها في رحلة البحث هذه.

وقد اعتمدت في هذا البحث على مجموعة من المصادر التراثية التي اعتمدت مقدماتها كمدونة لهذا البحث بالإضافة إلى مجموعة من المراجع من أهمها كتاب "استراتيجيات الخطاب" للدكتور عبد الهادي بن ظافر الشهري وكتاب " في بلاغة الخطاب الإقناعي " للدكتور محمد العمري، أدبية النص للدكتور صلاح رزق، نظرية النقد الأدبي الحديث للدكتور يوسف نور عوض بالإضافة إلى مجموعة من الكتب الحديثة سواء العربية أو المترجمة.

وكل بحث لم يخلُ هذا الأخير من العوائق والصعوبات التي تتمثل أهمها في نقص المراجع التي تناولت المقدمة كموضوع للدراسة. ولا يفوتني أن أتقدم بشكري الجزيل إلى الأستاذة المشرفة على تفهمها وتشجيعها لي إلى آخر لحظة من لحظات إنجاز البحث وإلى كل من وقف معي وساندني في إنجازه .

وفي الختام أتمنى أن يكون هذا العمل المتواضع قد ساهم ولو بقدر يسير في إبراز قيمة هذا التراث الذي يزر به تاريخنا والملهم في كل مرة بزوايا جديدة تفتح آفاق البحث العلمي أمام طلبة العلم، ورجائي أن أكون قد وفقت فيما ذهبت إليه فإن أصبت فمن الله وإن أخطأت فمن نفسي والله من وراء القصد.

مدخل

I - البيان الأدبي :

1 - مفهوم البيان :

" البيان هو الإفصاح مع ذكاء"¹ ويقصد به أيضا " تناول الموضوع من نواحيه المختلفة كتابة بحيث يكون أساسا للمناقشة و الدراسة "² وهو على أربعة وجوه " كما قسمها أبو الحسين إسحاق بن إبراهيم بن وهب في كتابه "البرهان في وجوه البيان " :

- ❖ بيان الاعتبار : وهو بيان الأشياء بذواتها، و المقصود به الانطباع الذي يلحق قلب الإنسان وعقله من رؤية الكائنات ومشاهدة الطبيعة .
- ❖ بيان الاعتقاد : وهو ما تحدث للإنسان عندما يعمل فكره فيتربط على أعمال الفكر علم الإنسان بمعاني الأشياء.
- ❖ بيان العبارة : وهو النطق باللسان.
- ❖ بيان الكتاب للبعيد أو الغائب"³

كما يقصد بكلمة بيان تصريح وهو " عمل استراتيجي يشكل برنامج عمل للجبهة التي تصدره، بوصفه الإطار النظري والإجرائي لسياستها (كل أنواع السياسات). إنه نظرية في المجال الذي يصدر فيه، وتصور شامل قائم على تعيين المسائل الجوهرية لا التفصيلية، وبالتالي فالبيان مشروع مستقبلي، إنه رؤية استشرافية، يحمل إرادة في التخلص من نسق فكري إلى نسق آخر، إنه يحمل إشعارا بالتحول و غالبا ما يرتبط البيان بحالات الانقلاب (في الحكم أو في غيره)، و قد ارتبط كثير من الحركات السياسية والأدبية بصدور بيانات توضح فلسفتها "⁴

1 - القاموس المحيط : dorar@gawab.com/info@onelketab.net
2 - مجدي وهبة، كامل المهندس: معجم المصطلحات العربية في اللغة و الأدب، مكتبة لبنان، ط 2 بيروت 1994 : ص 80

3 - نفسه : ص 430

4 - د / عبد الله العشي : زحام الخطابات : دار الأمل للطباعة و النشر والإشهار تيزي وزو 2005: ص 12

البيان عبارة عن رسالة موجهة من طرف كاتبه إلى القارئ بقصد " إشعاره بأن وضعاً ما سيتغير، وأن وضعاً جديداً هو بصدد الحدوث. إنه المعادل اللغوي للفعل الإنساني، الصرخة الموازية للحركة"¹. فهو دعوة إلى التغيير وثورة على الوضع السائد سواء كان سياسياً أو اجتماعياً.

2 - البيان الأدبي:

قد يكون مصطلح البيان انتقل من "عالم السياسة والاستراتيجية و الحرب (البيان السياسي، البيان الشيوعي، البيان العسكري) إلى عالم الثقافة الأدبية على غرار مصطلحات أخرى"². والبيان الأدبي The literary Manifesto مصطلح يربط بين المفهوم العام المتداول لكلمة بيان، بمعنى تصريح، وبين حق الأدب، وهو يدل على تصريح برنامجي مكتوب ومعلن عن أفكار ومقاصد وأهداف أديب أو مجموعة من الأدباء أو تيار أدبي، على الصعيد الأدبي والجمالي والاجتماعي والسياسي. وقد يتخذ البيان شكل مقال أو قصيدة أو خطبة أو مقدمة لعمل أدبي إبداعي أو لدراسة تحليلية، وقد يكون موضوع نقاش في حلقة أدبية.³ فهو بمثابة " نص نقدي نظري، فردي أو جماعي ينجزه شاعر أو شعراء، أو كاتب (أو كتاب) أو ناقد (أو نقاد)، في مفصل تاريخي ثقافي معين، يدفعهم إلى ذلك نزوع إلى التجديد و الحداثة و الثورة على المؤلف، وتجاوز الواقع الأدبي السائد، بحجة تأكله وترهله، وفقده لأسباب الحياة وعوامل الاستمرار والبقاء، وعجزه عن مسايرة الحاضر والتعبير عن التجارب الإنسانية المستجدة، وتوقفه عن تقديم الأشكال الأدبية التي تستجيب لتطور الذوق الفني وتحولاته، أو تطوره وتثريه"⁴.

إذا فالبيان الأدبي يعبر عن ثورة صاحبه على الوضع بسيادة نسق فكري معين، وتصريح بالدعوة إلى التجديد وتغيير المفاهيم أو الرؤية النقدية التي يشعر صاحب البيان بأن

1 - المرجع السابق : ص 12

2 - نفسه : ص 13

3 - الموسوعة العربية العالمية : www.arab-ency.com

4 - د / عبد الله العشي : زحام الخطابات : ص 13

الزمن قد تجاوزها ولم تعد صالحة وهو ما نجده في مقدمة ابن قتيبة في كتابه "الشعر والشعراء" حينما قال " ولم أسلك، فيما ذكرته من شعر كل شاعر مختارا له، سبيل من قلد، أو استحسن باستحسان غيره. ولا نظرت إلى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه، وإلى المتأخر (منهم) بعين الاحتقار لتأخره. بل نظرت بعين العدل على الفريقين، وأعطيت كلا حظه، ووفرت عليه حقه".¹ إذ يعتبر تصريحه هنا رؤية نقدية كان يسعى من ورائها إلى تصحيح بعض المفاهيم المسيطرة على حركة النقد في عصره، حيث كانت القناعة لدى أقرانه ومعاصريه بقيمة الشعر القديم في أنساقه التعبيرية دافعا لهم إلى رد الشعر الحديث لتأخر قائله في الزمن فكم من شعر استهجنه النقاد، أو أوردوه على صاحبه ولا عيب له عندهم حقيقة - كما يقول ابن قتيبة - إلا أنه متزامن معهم، وفي تاريخ الشعر العربي مواقف كثيرة تجسد هذا المفهوم، وفيه إلى ذلك أحكام تقريرية حادة في الدعوة إلى نبذ الشاعر المحدث. ومن ثم كانت رؤية ابن قتيبة تمثل صيحة مناهضة لذلك التوجه الذي ساد الحركة النقدية أو غلب عليها آنذاك.² وهو بدعوته هذه حاول أن يضع مقاييس نقدية تستجيب لتطور الذوق الفني وتحولاته في ذلك العصر ومن خلال " موقفه من الحداثة في الشعر، خرج من دائرة الحرب المعلنة في رصيدنا النقدي على كل شعر حديث أو شاعر محدث في إطار موضوعي يجعل التعامل مع النص بعيدا عن التأثير بكون قائله متقدما في الزمن أو متأخرا، فالتقدم والحداثة بوصفهما الزماني لا دخل لهما في الحكم عنده، وتلك مبادرة أولية تحسب لابن قتيبة في مفهومه النظري"³. وتعتبر صيحة ابن قتيبة من خلال مقدمة كتاب الشعر والشعراء بمثابة بيان موجه للقارئ لكي يتبنى معه هذه الآراء حول الاعتراف بالشاعر المحدث مادام مجيدا في شعره.

ويظهر البيان الأدبي " إرهاسا بتجربة جديدة في الكتابة الأدبية، قد تنجح وقد لا تنجح، وفقا لمدى الوعي التاريخي الذي يتمتع به كاتب البيان، وتمكنه من استكناه روح

1 - أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة : الشعر والشعراء، طبعة محققة و م فهرسة، دار الثقافة ببيروت. د ت :ص

2 - محمود عباس عبد الواحد : قراءة النص و جماليات التلقي بين المذاهب الغربية و تراثنا النقدي، دار الفكر العربي، ط 1، مدينة نصر 1996 : ص 32

3 - نفسه : ص 68، 87

العصر، و قدرته على فهم معطيات الواقع واستشعار آفاق المستقبل. هذا الوعي التاريخي شرط لنجاح أي تجربة ثقافية"¹.

فالبيان الأدبي إذا إعلان عن ميلاد رؤية جديدة وشرط نجاحها مرتبط بمدى وعي كاتبه بأبعاد الوضع السائد في عصره وإذا أخذنا مثلاً عبد القاهر الجرجاني نجده قد انطلق من نسق فكري سائد في عصره حيث " كان الفكر النقدي قد توزع حول قضية اللفظ والمعنى بين فريق يرى قيمة النص في لفظه أكثر من معناه، و فريق يرد المسألة إلى المعنى أكثر من اللفظ، وفريق ثالث توسط بين الفريقين، فسوى بين قيمة اللفظ وقيمة المعنى بشكل يؤدي إلى الثنائية الحادة، ولا ينتهي إلى الربط بين القيمتين في إطار النص ومن ثم كانت فكرة النظم أو حسن التأليف لعبد القاهر توجيهها لمسار الحركة النقدية إلى مفهوم الصورة"² فتجاوز بذلك الصراع القائم في عصره وأحدث ثورة قلبت الموازين بنظريته الجديدة هذه حيث جاء مفهومها خروجاً على مألوف ساد الحركة النقدية"³ لمدة طويلة.

كما " يعبر البيان عن لحظة انفجار فكرية ووجدانية مخزنة في الذات تنبثق من بين أعطاف نسق ثقافي يبدو في نظر كاتب البيان نسقاً قاصراً مترهلاً، عاجزاً عن الفعل والفاعلية، ومن ثمة يتميز."⁴ فلما هيمنت الطعون حول القرآن الكريم فجرت قرائح العلماء للدفاع عنه حيث كثر التأليف في إعجاز القرآن وهو " السعي لتنزيه القرآن عن المشابهة والمماثلة لكلام البشر، وتحديه بلغاء العرب بأن يأتوا بسورة من مثله فخرست ألسنتهم وعيت أذهانهم دون أن يبلغوا هذه الغاية"⁵. وقد اختلف هؤلاء العلماء في تناول وجوه الإعجاز فيه " فرأى الجاحظ في كتابه البيان والتبيين بأن النظم هو مدار الإعجاز رغم أنه لم يحط لذلك تعليلاً ولا تفسيراً، بينما الرماني حصرها من خلال كتابه " النكت في إعجاز القرآن في : المعارضة مع توفر الدواعي و شدة الحاجة، والتحدي للكافة والصرفة، والبلاغة، والأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلية، ونقص العادة، وقياسه بكل معجزة؛ أما أبو هلال العسكري من خلال كتاب الصناعتين فيرى بأن الإعجاز يقوم على الإقناع بالحجة والبرهان، وعلم البلاغة هو الذي يقدم ذلك البرهان حيث قال في مقدمة كتابه : "اعلم ... أن أحق العلوم

1 - د / عبد الله العشي : زحام الخطابات : ص 13

2 - د/ محمود عباس عبد الواحد : قراءة النص وجماليات التلقي: ص 30

3 - نفسه : ص 39

4 - د / عبد الله العشي : زحام الخطابات : ص 13

5 - مجدي وهبة، كامل المهندس: معجم المصطلحات : 50

بالتعلم، وأولاهما بالتحفظ، بعد المعرفة بالله جل ثناؤه علم البلاغة ومعرفة الفصاحة، الذي به يعرف إعجاز كتاب الله تعالى ... وقد علمنا أن الإنسان إذا أغفل علم البلاغة وأخل بمعرفة الفصاحة، لم يقع علمه بإعجاز القرآن من جهة ما خصه الله به من حسن التأليف، و براعة التركيب".¹

ونجد البقلاني في سياق دفاعه عن القرآن من خلال كتابه " إعجاز القرآن " أنه من وجوه الإعجاز في القرآن الكريم تضمنه الإخبار عن العيب الذي لا يصل إلى علمه البشر، ومنها أن القرآن بديع النظم، عظيم التأليف، متناه في البلاغة إلى حد يعجز عن إدراكه البشر ومنها ما يتضمنه القرآن من ألوان البديع.

ومن بين الذين تناولوا الموضوع أيضا نجد عبد القاهر الجرجاني في كتابه " دلائل الإعجاز " وأسرار البلاغة حيث يرى أن وجه الإعجاز يكمن في النظم وهو وضع الكلام في الوضع الذي يقتضيه علم النحو و العمل على قوانينه ومعرفة مناهجه "² . إذ تعتبر حركة الدفاع عن القرآن بالفعل لحظة انفجار فكرية ووجدانية إعلانا عن ميلاد علم البلاغة الذي نتج عن التأليف في إعجاز القرآن، " فالبلاغة العربية على هذا حديثة المنبت، قرآنية المصدر، درجت ونمت في رحاب كتاب الله تعالى، تستشهد في آياته، وتتشرب معانيه، قبل أن تتناول الأدب العربي بوجه عام."³

كما " يتميز البيان الأدبي بكونه إعلانا عن ميلاد فعل أدبي جديد أو مدرسة أدبية جديدة، أو حركة نقدية جديدة أو توجه أدبي جديد ... وغالبا ما يتضمن البيان الإشارة إلى التغيرات الحضارية التي تستوجب الانتقال إلى كتابة جديدة كما تتضمن الخلفية الجمالية التي تعتمدها المدرسة أو التيار"⁴ إذ " يرجع ظهور أوائل البيانات الأدبية في أوروبا إلى القرن السادس عشر، مثل بيان جماعة البليّاد الثريا الذي وضعه الأديب الفرنسي جواكيم دي بيليه في عام 1549 بعنوان في الدفاع عن اللغة الفرنسية وتبيان فضائلها وطالب فيه بضرورة إحلال اللغة الفرنسية مكان اللاتينية من أجل تطوير أدب فرنسي قومي يحاكي أدب قدماء اليونانيين

1 - أبو هلال العسكري:الصناعتين : ص 01

2 - ينظر: مجدي وهبة، كامل المهندس: معجم المصطلحات : ص 50

³ - بن يحيى طاهر ناعوس: البلاغة وتحليل الخطاب. دراسة في تغير النسق المعرفي: www.agukah.net

ص 04

4 - د/ عبد الله العشي : زحام الخطابات : ص 13

والمعاصرين من الكتاب الإيطاليين. وبين عامي (1798-1800) نشرت مجلة أتنايوم الألمانية بيانات الأدبيين نوفاليس وشليغل صاغاً فيها أفكار الحركة الإبداعية (الرومنسية) في مواجهة جمود وصرامة قواعد الاتباعية الجديدة (الكلاسيكية الجديدة). وكتب الشاعر الإبداعي الإنكليزي وردزورث في مقدمته للطبعة الثانية لـ «القوائد الغنائية» (1800) التي نظمها مع الشاعر كولريدج قدماً لاذعاً لأسلوب الحياة البرجوازي في المدن مفضلاً طمأنينة حياة الأرياف وسلامها ونقاها، فصارت مقدمته دستوراً للحركة الإبداعية في الأدب الإنكليزي. وتعد دراسة الكاتب الإيطالي موراتوري بمنزلة بيان الأكاديمية الرومية أركاديا الذي يدعو إلى العودة في إيطالية للذوق الكلاسيكي. وفي ظل انتصار الإبداعية بصورة حاسمة على بقايا الاتباعية، وفي فرنسا بين عامي 1825 و 1835 ظهرت بيانات أدبية مختلفة لأدباء معروفين، مثل الكسندر دوما ولامارتين ألفرد دي فينيو ألفرد دي موسيه وغيرهم، تتنبأ بزمناً قريباً قادم يندغم فيه الشعر بالواقع. وقد وجدت هذه العملية تعبيرها البرنامجي في دراسة ستندال راسين وشكسبير (1823-1825) ومن ثم في مقدمة فكتور هوغو لمسرحية كرومويل (1827) وقدم بلزاك في مقدمة عمله الروائي الضخم «الملهاة الإنسانية» (1848) برنامجاً أدبي الذي صار بيان حركة الواقعية النقدية. وقامت كتابات برلنسكي في روسية في المرحلة نفسها بوظيفة مشابهة. أما الحركة الرمزية فقد وجدت توصيفها وبرنامجها الفكري أول مرة في مقال جان موريا الرمزية 1886 إذ استخدمت كلمة بيان بالمعنى المحدد هنا ربطاً بحقل الأدب، وتبع بيان الرمزية في فرنسا بيان الأرض (1887) وهو موجه ضد إميل زولا في روايته «الأرض» وبيان المدرسة الطبيعية الذي صاغه الكاتب سان جورج دي بوهيلييه. وكذلك كان أمر الحركة التعبيرية التي صاغ برنامجها الكاتبان الألمانيان روبينزوف ومُفترت في مقالاتهما عام 1910 وقبل ذلك بعام واحد أصدر ماريندفي 22 شباط في صحيفة الفيغارو الفرنسية بيان الحركة المستقبلية. وتعد بيانات السريالية [التي صاغها الأديب الفرنسي أندريه بروتونين عامي 1924 و 1942 من أشهر البيانات الأدبية في القرن العشرين من حيث محتواها وتأثيرها، إذ كانت مثلاً المحفز الرئيسي لدى إيميه سيزير وسينغور لصياغة أفكار وتوجهات حركة الزنوج في إفريقية وأمريكة على صعيد الأدب والفكر والفن منذ أواسط الثلاثينات. وتعد قصيدة الشاعر السوفييتي ماياكوفسكي أمر موجه إلى جيش الفنون (1918) بياناً لحركة الواقعية.¹

إذا البيان الأدبي يعبر عن إعلان صاحبه بميلاد حركة أو نظرية جديدة تنثور على نسق ثقافي سائد فهل يمكن اعتبار مقدمات مصادر التراث العربي بيانات أدبية؟

II - المقدمة عتبة من عتبات النص :

يسعى النقد المعاصر اليوم إلى الاهتمام بما يسمى مداخل النص، أو عتبات الكتابة، ويرجع هذا الاهتمام إلى ما تشكله هذه المداخل من أهمية في "قراءة النص والكشف عن مفاتنه ودلالاته الجمالية، هذه العتبات هي علامات لها وظائف عديدة، فهي تخلق لدى المتلقي رغبات وانفعالات تدفعه إلى اقتحام النص برؤية مسبقة في غالب الأحيان ... فالعتبات النصية علامات دلالية تشرع أبواب النص أمام المتلقي، القارئ وتشحنه بالدفع الزاخلة بروح الولوج إلى أعماقه، وغياب هذه العتبات أو - النص الموازي - هل معناه أن القارئ سيكون عاجزا على اقتحام بنيته؟، إنه سيجد نفسه أمام أبواب مغلقة، وعلية فتحها، من هنا تتجلى أهمية هذه العتبات لما تحمله من معانٍ وشفرات لها علاقة مباشرة بالنص تنير دروبه أمام المتلقي، وهي تتميز... باعتبارها عتبات لها سياقات تاريخية ونصية ووظائف تأليفية تختزل جانباً مركزياً من منطق الكتابة"¹.

ومن بين هذه العتبات نجد المقدمة التي تعد بمثابة " خطاب نقدي يوضع في الأصل بمثابة عتبة تسهل للقارئ الولوج إلى العمل الأدبي، بالتركيز على الفلسفة العامة للكتاب أو الشاعر، وربط بعض النصوص بمناسباتها تسهيلاً على القارئ لفهم مضمونها، ومحاولة الإطاحة بكامل مكونات النص الشكلية والمضمونية، وشرح بعض غوامضه ورموزه ... من أجل تشكيل رأي المتلقين وصياغة آفاق تلقيهم، وتوجيه قراءاتهم"².

كما تعدا لمقدمة بمثابة بطاقة تعريف للكتاب فهي خطاب واصف لمتنه ودواعي التأليف، والمنهجية المتبعة، والمشاق التي قطعها المؤلف طيلة فترة التأليف، كل ذلك

1 - د /حسن الرموتي: عتبات النص: <http://knoozibda3.org> ص03

2 - د / عبد الله العشي: زحام الخطابات : ص 237

لإقناع القارئ بأهمية الكتاب وتهيئته نفسيا وذهنيا؛ لذلك فقد حظيت المقدمة بأهمية بالغة إذ " اعتبرت المدخل الرئيس والطبيعي إلى أغوار النص، فضلا عن كونها تمثل كلا جامعا لعناصر وجزئيات عديدة كالاستفتاح واسم المؤلف وغير ذلك " ¹.

يعتبر جيراز جنيت المقدمة خطابا استهلاليا من خلال كتابه عتبات " وهو ذاك المصطلح الأكثر تداولاً واستعمالاً في اللغة الفرنسية واللغات عموماً ، كل ذلك الفضاء من النص الافتتاحي Liminaire ... والذي يعنى بإنتاج خطاب بخصوص النص، لاحقا به أو سابقا له " ². كما يرى بأنه "من الاستهلالات الأكثر دورانا واستعمالا نجد : المقدمة، التمهيد، الديباجة، توطئة ... " ³.

"وبالمقارنة بين مقدمات المؤلفات القديمة والحديثة يلاحظ أن المقدمة قديما لا تنير إشكالات كبيرة لكونها كانت توضع في السطور. الأخيرة، كما أن زمن كتابتها يماثل زمن كتابة النص نفسه ونشره بين الناس، وشكلها هو شكل النص نفسه، ويحدد مرسلها في الكتاب الحقيقي أو المفترض، ومستقبلها هو مستقبل النص، أما المقدمات الحديثة فتتميز بخمس سمات:

- 1- الشكل: ليس النثر هو الصيغة الوحيدة والضرورية لكتابة المقدمة (...).
- 2- المكان: ليس هناك مكان قار مخصوص بالمقدمة تلزمه ولا تغادره (تتغير حسب الزمن والطبقات) (...).
- 3- اللحظة: تابع ج. جنيت لحظات كتابة المقدمة فوجدها غير قابلة للعد والحصر، واعتبر أن أهمها وأبرزها يتحدد في ثلاث أسس:

❖ اللحظة الأولى: تمتد من لحظة انتهاء الكاتب من كتابة نصه إلى طبعه، وتنطبق أساسا على الطبعة الأولى الأصلية.

❖ اللحظة الثانية: تهتم الطبعة الثانية للكتاب (...).

1 - عبد العزيز حسوس : نقد الشعر عند العرب في الطور الشفوي ، منشورات الوراقة الوطنية، ط 1 ، مراكش

2008 : ص 35

2 - جيراز جينيت : عتبات :تر: عبد الحق بلعابد ، منشورات الاختلاف، ط1 ، الجزائر 2008 : ص 112

3 - نفسه : ص 112

❖ اللحظة الثالثة: تخص "المقدمة المتأخرة" (...).

4- المرسل: من الصعب تحديد المرسل في المقدمة، لأن أنواع المقدمين تختلف وتتعدد حسب طبقات النص الواحد...

5- المستقبل: من السهل جدا تحديد مستقبل المقدمة مقارنة بمرسلها، لأنه يكون عادة – وبالضرورة – هو قارئ النص (...)¹

يتضح مما سبق أن الوعي بأهمية العتبات قد ازداد في السنوات الأخيرة، لدورها في إضفاء جمالية على النص، وتقريب القارئ أكثر فأكثر من فحوى النص.

III - العنوان عتبة من عتبات النص:

يعتبر العنوان أحد العتبات الأساسية التي لا يمكن الاستغناء عنها حيث " يشكل عتبة أساسية في تحديد الأثر الأدبي، فمن خلاله تتجلى جوانب جوهرية تحدد الدلالات العميقة لأي نص مما يجعلنا نسند للعنوان دور العنصر الموسوم سيمولوجيا النص هكذا يصبح العنوان عنصرا بنيويا يعطي للنص هويته والتي تفضي إلى قراءته، أي يمدنا بمفتاح تحليل النص وقراءته"² فهو بمثابة الرأس للجسد "لأنه يختزل النص برمته ويقدم للقارئ"³. لقد حظي العنوان باهتمام كبير من قبل الدارسين، ذلك أنه يعد أولى عتبات النص " التي تمثل مداخله، التي يقع عليها المتلقي سايكولوجيا ومعرفيا، بما قد تحيل إليه مما هو خارج النص أو داخله"⁴ ذلك لأن العنوان وإن لم يقدم نفسه بصفته مجرد عتبة للنص فإنه بالمقابل، لا يمكن الولوج إلى عالم النص، إلا بعد اجتياز هذه العتبة إنها تمفصل حاسم في التفاعل مع النص ... باعتباره سُمّاً وترياقاً في آنٍ واحد: فالعنوان، عندما يستميل القارئ إلى اقتناء النص وقراءته، يكون ترياقاً محفّزاً لقراءة النص، وحينما ينقّر القارئ من تلقائي النص؛ يصير سُمّاً، يفضي إلى موت النص، وعدم قراءته"⁵.

¹ - ينظر : عتبات النص:ص : 113 - 118

² - العتبات النصية : ص 20

³ - نفسه : ص 20، 21

⁴ - د/ حافظ المغربي : عتبات النص والمسكوت عنه : ص 07

⁵ - محمد بوعزة : من الدّص إلى العنوان : مجلة علامات في النقد، النادي الأدبي بجدة، مج14 - ع53-رجب 1425هـ : ص411

وباعتبار أن العنوان هو المفتاح الأول لولوج المتلقي إلى النص، فما العلاقة بين عناوين المصادر التراثية ومتونها وهل تعتبر بالفعل عتبة للولوج إليها؟ ومن خلال عناوين المصادر التراثية المدروسة في متن هذا البحث سأحاول أن أجيب عن هذا السؤال:

فمثلا عنوان طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي يمكن أن يدلنا على سعي صاحبه لتصنيف الشعراء إذ يمكن أن توحى كلمة طبقات إلى منهجه في تصنيف الشعراء وهذا ما يورده في مقدمته حينما تحدث عن منهجه في التصنيف حيث قال : " ففصلنا الشعراء من أهل الجاهلية والإسلام، والمخضرمين الذين كانوا في الجاهلية وأدركوا الإسلام ، فنزلنا منازلهم، واحتججنا لكل شاعر بما وجدنا له من حجة، وما قال العلماء"¹.

و في تصنيفه بين شعراء الجاهلية والإسلام وكذا الشعراء المخضرمين الذين عاشوا في العصرين وقد أنزل كل واحد منهم منزلته و احتج لكل واحد منهم كما يقول بما يقال عنهم من العلماء، ليشير بعد ذلك إلى اختلاف الناس والرواة في هؤلاء الشعراء ما جعله يعتمد منهجا في التصنيف فقال: "فاقتصرنا من الفحول على أربعين شاعرا، فألفنا من تشابه شعره منهم إلى نظرائه، فوجدناهم عشر طبقات، أربعة رهط في كل طبقة، متكافئين معتدلين"².

وقد ذكر أنه اعتمد ذكر المشهورين من الشعراء الذين لا يختلف فيهم عالم أو راوية من الرواة الثقات ثم أنه فصل بين الشعراء الجاهليين والمخضرمين والإسلاميين وجعل هؤلاء الشعراء في عشر طبقات كل طبقة في أربعة رهط متكافئين معتدلين، لا يفرق بين من يكتب في أول هؤلاء الأربعة أو آخرهم.

وفي نفس السياق نجد كتاب " الشعر والشعراء " فالعنوان هنا يوحي إلى حديث المؤلف ابن قتيبة عن الشعر والشعراء وهو عنوان قد يوحي إلى التنظير للشعر و الحديث عن الشعراء وهو ما يصرح به من خلال مقدمة الكتاب حين قال : " هذا كتاب ألفته في الشعر الشعراء، أخبرت فيه عن الشعراء وأزمانهم، وأقدارهم، وأحوالهم في أشعارهم وقبائلهم،

1 - ابن سلام الجمحي : طبقات فحول الشعراء : تح محمود شاكر، منشورات المدني 1974: ص 08

2 - المصدر السابق : ص 08

وأسماء آبائهم، ومن كان يعرف باللقب أو بالكنية منهم، وعما يستحسن من أخبار الرجل ويستجاد من شعره، وما أخذته العلماء عليهم من الغلط"¹.

ومن خلال الاطلاع على متن الكتاب نجد بأن العنوان بالفعل يدل على ما جاء من حديث المؤلف حول الشعر والشعراء. وقد تحقق "تمدد العنوان داخل النص"² أو كتاب المؤلف.

ومن العناوين المهمة في إطار الدفاع عن القرآن الكريم نجد مؤلف ابن قتيبة "تأويل مشكل القرآن" والذي يمكننا من استقراء بعض القضايا فأول كلمة فيه هي كلمة تأويل والتي تدل على اعتماد المؤلف على منهج يمكن استقراؤه انطلاقاً من العنوان "إذ يفرض التأويل نفسه كمنهج منذ البداية أثناء تحليل المؤلف للآيات التي فسرّها في المقدمة حيث تمثل صنفاً من التعابير فهمها مشكلة لأنها خرجت عن مألوف الاستعمال فهي لذلك قد تؤدي إلى اللبس والغموض وتكون حجة للطاعنين و المخادعين"³ ومن أجل الهدف الذي رسمه المؤلف والمتمثل في "الدفاع عن القرآن و بيان فضله وسد الذرائع أمام المناوئين وقطع أطماع الكائدين كان لابد من منهج يرد الأمور إلى نصابها ويتجاوز الإشكال الظاهر على سطح النص إلى حقيقة سرمدية يجتمع عليها أهل الاعتقاد وقد ضبط ذلك المنهج في مصطلح التأويل"⁴.

كما أن عبارة "تأويل مشكل القرآن" تعبر عن تفسير المؤلف لمشكلة الطاعنين في القرآن الكريم وحصرها في تأويلهم الخاطئ لبعض آيات القرآن الكريم وهذا ما يثبتته قوله "وقد اعترض كتاب الله بالطعن ملحدون، ولغوا فيه و هجروا، و اتبعوا ﴿ ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ﴾ بأفهام كليلّة، وأبصار عليلّة، ونظر مدخول، فحرفوا الكلام

1 -ابن قتيبة : الشعر والشعراء : ص 07

2 - عتبات النص والمسكوت عنه : <http://knoozibda3.org> : ص 08

3 - حمادي صمود : التفكير البلاغي عند العرب ، منشورات كلية الآداب ، ط 2 ، تونس 1994: ص 328

4 -المرجع السابق : ص 328

عن مواضعه، و عدلوه عن سبله ثم قضوا عليه بالتناقض، والاستحالة، واللحن وفساد النظم، والاختلاف"¹.

ومن هنا يمكن أن نستنتج بأن العنوان " تأويل مشكل القرآن " يعد بالفعل بمثابة عتبة من عتبات النص التي تجعل القارئ يبني " توقعه من خلال قراءته للعنوان ويدفعه إلى تحديد جنس النص ومضمونه اعتمادا على صياغته اللغوية والدلالية "² وبناء على "بنية تركيبه وعناصره المعجمية ... يمكن أن يفضي ... إلى تحديد شكله ودلالته وترجع هذه الأهمية إلى وضعيته الخاصة بالمقارنة مع العناصر الأخرى"³ التي تشكل عتبات النص.

وفي سياق الإعجاز القرآني دائما نجد بأن مؤلف " دلائل الإعجاز " لعبد القاهر الجرجاني" إذ من خلال قراءتنا لهذا العنوان " دلائل الإعجاز " تشد انتباهنا كلمة دلائل التي مفردها دليل بمعنى حجة و" الحجة " ما دفع به الخصم و قال الأزهري : الحجة الوجه الذي يكون الظفر عند الخصومة، والحجاج التخاصم وجمع حجة : حجج وحجاج وحاجة محاجة، ونازعه الحجة، وحجه يحجه حجا : غلبه على حجة له، و في الحديث : "فحج آدم موسى " أي : غلبه على حجته واحتج بالشيء : أي اتخذ حجة. قال الأزهري: إنما سميت حجة لأنها تحج أي تقصد، لأن القصد لها وإليها ... والحجة البرهان"⁴ وبالتالي من خلال قراءتنا للعنوان يظهر البعد الحجاجي الذي اعتمده عبد القاهر الجرجاني في كتابه " دلائل الإعجاز "

كما قد يشير العنوان إلى المنحى أو الاتجاه الذي يرمي إليه المؤلف ونزعتة ومنها بعض عناوين المصنفات الأندلسية التي تظهر نزعة بعض مؤلفيها إلى تحويل المركزية عن المشرق مثل مصنف " الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة " إذ توحى كلمة الذخيرة إلى سعيه للمحافظة على آداب أهل الأندلس من خلال مصنفه هذا وهو ما يصرح به في قوله: "

1 - ابن قتيبة أبو محمد عبد الله بن مسلم: تأويل مشكل القرآن ، تح السيد أحمد صقر ، دار التراث ، ط 2

القاهرة 1973 م : ص 22

2 - العتبات النصية : ص 20

3 - د. حميد لحداني: "عتبات النص الأدبي (بحث نظري)"-مجلة علامات في النقد-النادي الأدبي بجدة-

مج 12 - ع 46 -شوال 1423 هـ : ص 8

4 - ابراهيم إيدير : الآليات الحجاجية في " الأدب الكبير " لابن المقفع - دراسة تداولية - : اليوم الدراسي حول المناهج : منشورات مخبر الممارسات اللغوية في الجزائر : ص 141- 142

وأخذت نفسي بجمع ما وجدت من حسنات دهري، وتتبع محاسن أهل بلدي وعصري غيرة لهذا الفن في هذا الأفق الغريب أن تعود بدوره أهلة ، وتصبح بحاره ثمادا مضحلة، مع كثرة أدبائه ووفور علمائه"¹. كما توحى كلمة محاسن إلى سعيه لانتقاء أجود ما ألف في الأندلس حيث يقول: " تتبع محاسن أهل بلدي، ... محاسن الألباب،...تسحر الشعراء والكتاب "².

ونلاحظ أن عبارة " أهل الجزيرة " والتي يقصد بها الأندلس تعبر عن نزعتة الأندلسية والتي حاولت أن تجعل للأندلس شخصية أدبية وفكرية مميزة " فابن بسام كان يعيب على أهل الأندلس تقليدهم لأهل المشرق، وإهمالهم ما يتصل بأندلسهم. وقال في ذلك عبارته المشهورة ناعياً على أهل الأندلس ذلك إلا أن أهل هذا الأفق أبوا إلا متابعة أهل المشرق، يرجعون إلى أخبارهم المعتادة، رجوع الحديث إلى قتادة، حتى لو نطق بتلك الآفاق غراب، أو طنّ بأقصى الشام ذباب، لجثوا على هذا صنمًا وتلوا ذلك كتابًا محكمًا"³.

كما نجد بعض العناوين التي تعبر عن أحكام قيمة لمضمون الكتاب ومنها بعض المصنفات مثل :

❖ العقد الفريد الذي صنفه صاحبه ابن عبد ربه مضمنا أجود آداب العرب وحكمهم حيث قال في مقدمته : " وتخيرت جواهره من متخير جواهر الأدب ومحصول جوامع البيان، فكان جوهر الجوهر و لباب الألباب"⁴، بحيث توحى لفظة " فريد" إلى التميز والانفراد كما تدل على "الاستحسان والمدح "⁵، كما توحى تسمية العقد على حسن التصنيف والسبك باعتبار أن حباته مرتبة بانتظام وهي الطريقة التي اتبعها المؤلف في مصنفه حيث " اختار لكل باب منها اسم حبة من حبات العقد الحقيقي، فيبدأ العقد بكتاب اللؤلؤة في السلطان، ثم يتبعه كتاب الفريدة في الحروب ومدارها، ويعقب ذلك كتاب الزبرجدة في الأجواد والأصفاد والجوهرية في الأمثال والزمردة في المواعظ والزهد والدرة في التعازي والمراثي، حتى يصل العقد إلى

1 - أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني الأندلسي: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة : تح: د/ إحسان عباس؛ ج 1 دار الثقافة، بيروت 1997 : ص 12

2 - الشنتريني : الذخيرة : ص 07

3 - الموسوعة العربية العالمية

4 - أحمد بن عبد ربه : العقد الفريد: تح: د/ مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، ط1، لبنان 1973: ص 4

5 - الموسوعة العربية العالمية

واسطته وهي كتاب الواسطة في الخطب .وبعد الواسطة تأتي أبواب أخرى تحمل أسماء حبات العقد السابقة، وكأنها تماثلها في الجانب الآخر من واسطة العقد .فنجد الزبرجدة الثانية في بيان طبائع الإنسان وسائر الحيوان والفريدة الثانية في الطعام والشراب ثم اللؤلؤة الثانية في الفكاهات والملح . وبذلك ينتهي الكتاب باللؤلؤة كما بدأ بها "1.

في النهاية يمكن أن نستنتج بأن عناوين مؤلفات المصادر التراثية تعتبر بالفعل عتبة أولى من عتبات هذه الكتب التي أبانت إما عن منهج صاحبها في التأليف أو عن قصده من تأليف الكتاب أو نزعه التي يريد إثباتها من خلاله.

الفصل الأول

الفصل الأول : بيانات الوصف

I - قضايا الشعر والشاعر

1 - قضايا الشعر

2 - قضايا الشاعر

II - قضايا أثارت الصراع

1 - الصراع بين القدماء والمحدثين

2 - قضية اللفظ والمعنى

3 - قضية السرقات

4 - المركزية بين المشرق والمغرب

III - هيمنة النسق المنطقي عل التصنيف والتأليف

تهدف بيانات الوصف إلى دراسة الخطابات التنظيرية من خلال المقدمات المدروسة والمقصود " بالخطاب التنظيري الخطاب الذي يسعى إلى تقديم رأي أو وجهة نظر أو (نظرية) حول مسألة أو أكثر من المسائل المجردة المتعلقة بالظاهرة الأدبية المسائل التي تتناول المفاهيم والمبادئ الأولية، وتناقش الأفكار ذات الطابع الفلسفي مثل: مفهوم الأدب ووجوده وطبيعته وظيفته، وجمالياته، وغيرها، ولا تتناول النصوص الأدبية بأعيانها، بل تعنى بالظاهرة الأدبية بوصفها مفهوما عقليا"¹.

I - قضايا الشعر والشاعر:

1 - قضايا الشعر:

أ - ماهية الشعر :

الشعر "هو فن من فنون الكلام يوحي عن طريق الإيقاع الصوتي واستعمال المجاز بإدراك الحياة والأشياء لا إدراكا به يوحي النثر الإخباري. ولقد اختلفت الآراء في تعريف الشعر إلا أنه اتفق أغلبها على خواص أساسية لا بد من وجودها في الكلام حتى يستحق أن يسمى شعرا وهي : التعبير عن إحساس قوي وتأثير عميق، والنظر إلى الحياة نظرة لا يمكن إدراكها ولا التعبير عنها بمجرد المنطق والبرهان ... ويزيد الشعر العربي قيدا لفظيا آخر هو وجود القافية والشعر العربي وحدته القصيدة وهي المنظومة الشعرية ذات الوزن الواحد والقافية الواحدة"²، وباعتبار أن الشعر أكبر علوم العرب، وأوفر حظوظ الأدب وأحرى أن تقبل شهادته وتمتثل إرادته لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إن من الشعر لحكما" وقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "نعم ما تعلمته العرب الأبيات من الشعر يقدمها الرجل أمام حاجته فيستنزل بها الكريم، ويستعطف بها اللئيم"³، فهو إذا " فن العربية الأول، وأكثر فنون العربية هيمنة

1 - د/ عبد الله العشي : زحام الخطابات : ص 12

2 - مجدي وهبة، كامل المهندس : معجم المصطلحات : ص 210

3 - أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني : العمدة في محاسن الشعر، تح محمد عبد القادر أحمد عطا، ج1

دار الكتب العلمية، بيروت ، ص 12

على تاريخ ... تراث الأدب العربي... ويلخص ذلك قولهم: الشعر ديوان العرب"¹.

فالشعر عند العرب إذا " صناعة وهي صناعة معقدة، تخضع لقواعد قيفية دقيقة صارمة في دقتها بحيث لا ينحرف عنها صناع الشعر إلا ليضيفوا إليها قواعد أخرى ما تزال تنمو مع نمو الشعر وتتطور مع تطوره"².

❖ وممن أشاروا إلى هذا المفهوم للشعر في مقدمة مؤلفه نجد ابن سلام الجمحي في كتابه "طبقات فحول الشعراء" ويرى بأنه للشعر " صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم والصناعات منها ما تتقنه العين ومنها ما تتقنه اليد، ومنها ما يتقنه اللسان"³ إذ اعتبر المؤلف هنا الشعر صناعة كغيرها من الصناعات يتقنها أهل الاختصاص، وقد ربط بذلك الشعر بالناقد حين جعل "الشعر صناعة يتقنها أهل العلم"⁴، ومن خلال تأكيده على هذه القضية أي صناعة الشعر يكون قد "وضع بذلك الأساس النظري لمنهجه، ذلك بأن فهم الشعر يحتاج لنظرية وهذه لابد وأن تؤسس على مبادئ يعرفها أهل العلم والنظر في هذا المجال وتلك نقلة مهمة في نظرية النقد العربية"⁵

❖ وممن ربط الشعر بالصناعة أيضا نجد ابن طباطبا العلوي في كتابه "عيار الشعر" حيث شبه صناعة الشعر بصناعة النسيج والنقش ونظم الجواهر إذ يقول "ويكون كالنسيج الحانق الذي يفوف وشيه بأحسن التفويف ويسديه وينيره ولا يهلهل شيئا منه فيشينه، وكالنقاش الرفيق الذي يضع الأصباغ في أحسن تقاسيم نقشه، ويشبع كل صبغ منها، حتى يتضاعف حسنه في العيان، وكناظم الجواهر الذي يولف بين النفيس منها والثمين الرائق، ولا يشين عقوده، بأن يفاوت بين جواهرها في نظمها وتنسيقها"⁶.

فالشاعر عنده هو ذلك النسيج الذي يحيك نسجه ويزينه بأبهى الألوان، وهو ذلك النقاش الذي يتقن وضع الأصباغ في مواضعه، أو ناظم الجواهر الذي ينتقي من الجواهر أنفسها وأجودها ويتفنن في تنسيقها؛ ومن أجل إتقان صناعة الشعر وإخراج قصيدة تنال رضا جمهور السامعين يقترح ابن طباطبا على الشاعر الخطوات التي تتلخص فيما يأتي:

1 - الموسوعة العربية العالمية

2 - شوقي ضيف : الفن ومذاهبه في الشعر العربي، دار المعارف، ط 11، القاهرة دت: ص 14

3 - طبقات فحول الشعراء: ص 2

4 - تاريخ النقد الأدبي: ص 66

5 - يوسف نور عوض: نظرية النقد الأدبي، دار الأمين للنشر والتوزيع، ط 1 القاهرة 1994: ص 118

6 - ابن طباطبا : عيار الشعر : ص 43 - 44

- 1 - يمحض المعنى في فكره نثرا.
- 2 - يعد ما يلبس هذه المعاني من الألفاظ التي تطابقها والقوافي التي تتوافق معها والوزن الذي يتفق له البيت الذي يرومه أثبتته.
- 3 - أن يحمل فكرة في شغل القوافي بما تقتضيه المعاني وتكون العملية من غير تنسيق بين الأبيات بحيث " يعلق كل بيت يتفق له نظمه على تفاوت ما بينه وبين ما قبله" ¹ حتى تكثر عنده الأبيات.
- 4 - يوفق بين هذه الأبيات بأبيات تكون نظاما لها جامعة لما تشنت منها حافظة لتناسقها.
- 5 - يتأمل المنتج وينتقده قصد استدراك ما وهي منه، ثم تبديل الألفاظ المشتركة بأخرى سهلة نقية ويوفق بين القافية والمعنى مع جواز إبطال بيت أو جزء منه طلبا للأفضل وقد شبه الشاعر في هذه العملية بالنساج الحاذق ويتقن صناعته وبالنقاش الرفيق يضع الأصياغ في أحسن تقاسيم وجه نقشه وينظم الجوهر يتقن نظم عقوده فرأى بأن الشاعر مثلهم إذا أسس شعره عليه أن ينفي الكلام البدوي الفصيح وأن ينقي الألفاظ وفق مقاييس يعدها وأن توافق هذه الألفاظ مراتب القول والوصف وفق فنون الشعر ومنهاج أصحاب الرسائل في بلاغاتهم إذ يرى بأن فصول الشعر كفصول الرسائل وأن الشاعر بحاجة إلى وصل كلامه "فيحسن التصرف في فنونه فيتخلص من الغزل إلى المديح ومن المديح إلى الشكوى ... وأن يكون ذلك بألطف تخلص وبلا انفصال في المعنى" ².

وقد تشابه مع ابن سلام الجمحي في اعتباره للشعر صناعة ولكن ابن طباطبا العلوي يقترح مفهوما للشعر وهو قوله " الشعر كلام منظوم بائن عن المنثور الذي يستعمله الناس في مخاطباتهم، بما خص من النظم الذي إن عدل عن جهته مجته الأسماع، وفسد على الذوق، ونظمه معلوم محدود، فمن صح طبعه وذوقه لم يحتج إلى الاستعانة على نظم الشعر بالعروض التي هي ميزانه، ومن اضطرب عليه الذوق لم يستغن عن تصحيحه وتقويمه بمعرفة العروض والحدق به، حتى تعتبر معرفته المستفادة كالطبع الذي لا تكلف معه" ³، حيث اعتبر ابن طباطبا أن الشعر كلام منظوم بائن عن المنثور وقد قابل بين

1 - المصدر السابق : ص 43

2 - نفسه : ص 46

3 - نفسه : ص 41

الشعر والنثر ليلتقي بذلك مع مجمل النظريات الشعرية "حول ملمح أساسي يتمثل في مقابلة الشعر لا شعر أو النثر"¹، فالشعر عنده "معنى ولفظ ونظم وقافية ويقول: "والشعر هو ما إن عرى معنى بديع، لم يعر من حسن الديباجة وما خالف هذا فليس بشعر". فالشعر المستكمل للوزن والقافية من حيث الشكل لا بد فيه من معنى بديع، حسن ديباجة، فإذا خلا من أحدهما لا يخلو من كليهما. وإلا لم يعد شعرا. وكأنه يريد أن يقول إن ما يسمى شعرا ينقسم إلى ثلاثة أقسام: قسم بديع المعنى، حسن الديباجة وهو في المرتبة الأولى، يليه بديع المعنى وإن خلا من حسن الديباجة، وثالثها حسن الديباجة وإن خلا من بديع المعنى، وبديع المعنى غير محدد نصا في كلامه، وإن كنا سنصل منه إلى تحديد عام له."²

نستنتج في النهاية أن كلا من ابن سلام وابن طباطبا اتفقا على اعتبار الشعر صناعة على عادة العرب ولكنهما اختلفا في كيفية الوصول إلى إتقان هذه الصناعة حيث ربط ابن سلام الصناعة الشعرية بالحكم عليها فاشتراط لذلك ثقافة تؤهل الناقد من أجل تمحيص الشعر وتمييز أصيله من منحوله؛ بينما ابن طباطبا ربط بين صناعة الشعر وثقافة الشاعر باعتباره محور العملية وهو محكوم بجمهور يفرض عليه مجموعة من القوانين والتقاليد التي تحكم هذه الصناعة إن تجاوزها حرم القبول منهم إذ تحدث ابن سلام بمنطق العالم في الشعر الناقد له؛ بينما تحدث ابن طباطبا باعتباره شاعرا خبر مراس الشعر ونظمه.

وممن تحدثوا عن مفهوم الشعر من النقاد التراثيين نجد قدامة بن جعفر في كتابه "نقد الشعر" حيث يعرفه بقوله "الشعر كلام موزون ومقفى يدل على معنى"³ "فقد جمع بين اللفظ والوزن والقافية والمعنى. وكأنه يفصل بالنظم أي الوزن والقافية الكلام في الشعر عن سائر الكلام ويتفق في ذلك مع ابن طباطبا، وإن كان كلام ابن طباطبا أعم، وحده ليس بالدقة التي يبين لها الشعر، فيكون حدا جامعاً مانعاً كما يقول المنطقة"⁴.

1 - جون كوين: اللغة العليا والنظرية الشعرية، تر. د. أحمد دريش، المجلس الأعلى للثقافة، ط2، 2000، ص

12

2 - ابن طباطبا: عيار الشعر: (مقدمة المحقق): ص 25 - 26

3 - أبو الفرج قدامة بن جعفر: نقد الشعر: تح. د. عبد المنعم خفاجي، د ط، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان د

ت ن: ص: 62

4 - ابن طباطبا: عيار الشعر: (مقدمة المحقق) ص 21

ومن خلال إفصاحه عن مقصده من تأليف كتابه اعتبر أن العلم بالشعر ينقسم إلى خمسة أقسام هي:

- ✓ " قسم ينسب إلى علم عروضه ووزنه.
- ✓ قسم ينسب إلى علم قوافيه ومقاطععه.
- ✓ قسم ينسب إلى علم غريبه ولغته
- ✓ قسم ينسب إلى علم معانيه والمقصد به.
- ✓ قسم ينسب إلى علم جيده و رديئه"¹.

" وقد عني الناس بوضع الكتب في القسم الأول وما يليه إلى الرابع عناية تامة، فاستقصوا أمر العروض والوزن وأمر القوافي والمقاطع وأمر الغريب والنحو، وتكلموا في المعاني الدال عليها الشعر، وما الذي يريد بها الشاعر. ولم أجد من وضع في " نقد الشعر" وتخليص جيده من رديئه كتابا، وكان الكلام عندي في هذا القسم أولى بالشعر منسائر الأقسام المعدودة"².

وهذا " كلام واضح يدل على أن قدامة كان يعي تماما الفرق بين الناقد التطبيقي والمنظر الذي يعمل في مجال علم الأدب، ويشرح كيفية تكوينه والوصول إلى غايته، وفعل قدامة بن جعفر ذلك قبل مئات السنين من ظهور " تودروف " و"فلاديمير بروب" و"ليفى شتراوس"، وانطلق في توضيح فكرته من تصور أساسي وهو أن الهدف في الأدب ليس المعنى الذي ينطلق منه الشاعر، بل أدبوية الأدب. وذهب إلى أن فحش المعنى أو التناقض في مواقف الأدباء لا يشكل عيبا أدبيا خلصا؛ ذلك أن الأدب إنما يتحقق بالالتزام بفكرة " الأدبوية"، ونلاحظ أن قدامة بن جعفر يستخلص للشعر أربع مقولات رئيسية هي : اللفظ، والمعنى، والوزن والقافية، ويتفرع منها ضروب تتألف فيها هذه المقولات، ويوضح قدامة إلى جانب ذلك الكيفية التي يتحقق بها التناسب في الشعر وهي التي تمكننا من الحكم على جيده و رديئه. ويتضح من كل ذلك أن قدامة بن جعفر انطلق من فكرة واضحة استهدف في

1 - قدامة بن جعفر : نقد الشعر : ص 61

2 - نفسه: ص 61

جوهرها الكيفية التي تتحقق بها أدبوية الأدب وإمكانية وضع علم خاص به يتناول فروعه، ويمكن أن يطلق عليه اسم علم الأدب أو "الببوطيقا"¹.

" ويتأكد من المقولات السابقة لابن سلام وابن طباطبا وقدامة ... أن الركن الأصيل في تحقيق تميز الشعر، بل في تحديد ذاتيته، يتعلق، أوثق ما يتعلق، بأبعاد التصرف اللغوي في بنيته ... ذلك التصرف الذي يرجع إلى وضعية اللغة بحسب اختيار المتخير الماهر، وانتقاء المبدع الصانع، ومدى إنجازها الدلالي في السياق الشعري، وقيمة الإحياءات التي تثيرها في نسج تشكيل فني من شأنه أن يحقق متعة جمالية وقيمة حيوية.² إذ يعتبر موقفه في ذلك رؤية نقدية يمكن أن تأسس لعلم الشعر.

ب - أدوات الشعر:

باعتبار أن الشعر صناعة بحاجة إلى أسس تقوم عليها اهتم النقاد بهذا الجانب في "الشعر العربي القديم وهو جانب طريق يكشف لنا حقيقة الشعر الجاهلي وحقيقة صناعته، وأنها لم تكن مستودعا للتجارب الفردية، بل كانت مقيدة بمصطلحات كثيرة لا في اللغة والنحو والعروض فقط، بل في الموضوع والمواد التي تكونه، وما يختاره الشاعر في صنع نماذجه من أدوات تصويرية أو أسلوبية أو معنوية."³

ومن النقاد الذين تعرضوا للحديث عن أدوات الشعر نجد ابن طباطبا العلوي الذي حددها في عياره وهي الوسائل التي يجب على الشاعر أن يلم بها قبل أن يمارس الشعر ويتكلف نظمها، ومن هذه الوسائل أن يكون الشاعر غزير العلم باللغة وإعرابها ورواية فنونها الأدبية، كما يجب أن يلم إلماما تاما بأيام العرب وأنسابهم، وأن يكون واسع الاطلاع على أساليبهم في بناء الشعر والتفنن في معانيه، وله من الفكر والذوق ما يميز به بين الأضداد ويؤثر الحسن ويتجنب القبيح."⁴ ومن أجل إتقان هذه الأدوات يظل الشاعر " منذ نشأته مهتما بأمر نفسه خاضعا لضروب المرانة والتعليم حتى يكون جديرا بلقب شاعر، فهو يروي لأسلافه الشعراء ما أبدعوه من شعر ويتباهى بذلك حيث " يقول الأصمعي لا يصير

¹ - يوسف نور عوض : نظرية النقد الأدبي الحديث : ص 121 ، 122

² - د/ رزق صلاح : أدبية النص، دط ، دار غريب للطباعة والنشر و التوزيع ، القاهرة 2002: ص 58

³ - شوقي ضيف : الشعر ومذاهبه في الشعر العربي : ص 19

⁴ - مجدي وهبة وكامل المهندس: معجم المصطلحات الأدبية : ص 23

الشاعر في قرير الشعر فحلا حتى يروي أشعار العرب ويسمع الأخبار ويعرف المعاني وتندور في مسامعه الألفاظ.¹ فيكون بذلك مؤهلا لمقابلة الجمهور ونيل رضاه .

ج - علاقة الشعر بالمتلقي :

القارئ هو " الشخص الذي يقرأ نصا ما، والمفروض أن يكون المؤلف قد وضع ذلك النص بقصد أن يخاطب قارئه من خلال الكلمات الرامزة لمعان كامنة في نفسه وإلا كف عن الكتابة واكتفى بالتأمل صامتا "².

ومن خلال هذا المفهوم تعتبر علاقة القارئ بالنص علاقة جدلية إذ لا وجود للنص دون قارئ ولا وجود لقارئ دون نص وهذه قضية شغلت النقد الحديث والمعاصر مع تطور المذاهب الحديثة والمعاصرة "³ حيث طغت الدراسات حول القارئ أو المتلقي لدى النقاد المعاصرين " إذ يكون القارئ، منذ أن يندمج في النص، فرضية عامة عن المضمون العام لهذا الأخير، ... وينبغي ... أن ينصب جهد القارئ النقدي، وبمجرد أن تبدأ القراءة، على تأويله الخاص الذي يصبح حينئذ مادته الأولية التي ينبغي عليه تحليلها وتمحيصها "⁴.

إذا كان هذا هو دور القارئ لدى بعض النقاد المعاصرين فكيف نظر النقاد العرب إلى القارئ وما علاقته بالشعر؟.

من بين النقاد التراثيين الذين اهتموا بالقارئ نجد ابن قتيبة من خلال الجزء النظري في مقدمته كتاب الشعر والشعراء حين اعتبر بأن جودة الشعر " تتركز في الصناعة الذي بإمكانه أن يميز أربعة أضرب من الشعر، وحدها ويستشعرها القارئ أو السامع من خلال قراءته أو سماعه للشعر، ويلاحظ أن ابن قتيبة يعطي للمرة الأولى دورا مهما للقارئ أو السامع الذي بإمكانه أن يميز أربعة أضرب للشعر، و هو ضرب حسن لفظه ومعناه، وضرب جاد معناه وقصرت ألفاظه، وضرب تأخر لفظه ومعناه، ولم يتوسع ابن قتيبة في ذلك بحيث يمكن أن نرصد له نظرية قرآنية واضحة، ومع ذلك فإن تركيزه على فكرة الديباجة التي تبنى عليها القصيدة والتوازن بين أجزاء هذه الديباجة، بالإضافة إلى حديثه

1 - منير سلطان : ابن سلام وطبقات الشعراء، منشأة المعارف الإسكندرية 1986 : ص 16

2 - مجدي وهبة وكامل المهندس : معجم المصطلحات : ص 282

3 - ابن رشيق : العمدة في الشعر : ج 1 : ص 172

4 - فيرناند هالين وآخران: بحوث في القراءة والتلقي، تر:خير البقاعي، مركز الإنماء، دب: ص 71، 72

عن المطبوع والمصنوع يمكن أن يؤكد على أنه كان ينتمي إلى الاتجاه الذي حاول أن يوجد أسسا نظرية لأدبوية الأدب وهو اتجاه تتفاوت مساراته في التراث العربي.¹

وممن تميزوا أيضا من خلال مواقفهم حول القارئ وعلاقته بالشعر نجد صاحب عيار الشعر الذي ربط بين قيمة الشعر وذوق القارئ حين قال : ... الذي عدل عن جهته مجته الأسماع، وفسد الذوق...².

فاعتبر بذلك بأن عياره مبني على حكم ، وقد أشار ابن طباطبا إلى القارئ حينما تحدث عن تفاضل الأشعار في الحسن وتساويها في الجنس ويرى بأن مواقعها من اختيار الناس إياها كمواقع الصور الحسنة عندهم واختيارهم لما يستحسنونه منه ولكل اختيار يؤثره، وهو يتبعه وبغية لا يستبدل بها ولا يؤثر سواها. إذ يعتبر ابن طباطبا أن القارئ يشارك في الحكم على الأشعار من حيث حسنها أو قبحها وفقا لاختلاف أهوائه وهكذا " يكون ابن طباطبا من أوائل الذين قالوا بنظرية استجابة القارئ للأدب ... وذلك هو الأساس الذي أقام عليه عياره "³ ومن هنا نستنتج بأن القارئ يشارك في عملية الحكم على الأشعار من خلال تذوقه لها في نظر ابن طباطبا.

2 - قضايا الشاعر :

إن كلمة الشاعر في اللغة العربية " مشتقة من شعر بمعنى أحس وعلم، وإنما سمي كذلك لشدة فطنته ودقة معرفته ورقة شعوره على أن الشعر كان يعتبر عند العرب صناعة"⁴.

تتمثل وظيفة الشاعر في " تحويل ما يدركه من خلال خبرته أو قراءته أو الاثنتين معا إلى أثر أدبي يتميز بالفصاحة والجمال البلاغي اللذين لم يدركهما القارئ عند شاعر قبله، فوظيفته إذا أن يكسو معاني مألوفة ثوبا بلاغيا قشيبا."⁵

وممن ظهر اهتمامهم بالشاعر نجد ابن قتيبة وذلك من خلال الجزء النظري في مقدمته وفي ثنايا حديثه عن المنهج المعتمد في تصنيف الشعراء حيث يبدوا اهتمامه متجها " في

1 - يوسف نور عوض : نظرية النقد الأدبي الحديث : ص 120

2 - ابن طباطبا : عيار الشعر : ص 41

3 - نفسه: ص 45

4 - مجدي وهبة و كامل المهندس : معجم المصطلحات : 260

5 - نفسه : ص 260

أكثره نحو الشاعر دون إغفال للشعر والجمهور"¹؛ يرى المؤلف أن الشاعر متكلف أو مطبوع .

أما التكلف فهو "الذي قوّم شعره بالثقاف، ونقحه بطول التفتيش، وأعاد فيه النظر

بعد النظر، كزهير والحطيئة"²، إذا فالمتكلف عنده هو صاحب الصنعة الشاعر الذي "يأخذ شعره بالثقاف والتنقيح والصقل وكأنه يفحص ويمتحن ويجرب كل قطعة من قطع نماذجه، فهو يعني بتحضير مواده"³ على وجه التنقيح. فيضع " القصيدة ثم يكرر نظره فيها خوفا من التعقب بعد أن يكون فرغ من عملها في ساعة أو ليلة "⁴. وقد ضرب لذلك مثال زهير بن أبي سلمى الذي عرف بحوليّاته.

أما " المطبوع من الشعراء من سمح بالشعر واقتدر على القوافي، وأراك في صدر بيته عجزه وفي فاتحته قافيته، وتبينت على شعره رونق الطبع ووشي الغريزة وإذ امتحن لم يتلعثم."⁵، و" هذا يعني أن الطبع يشمل القول على البداة "⁶ و"لا ينبغي أن يصدم قارئه أو يفاجئه ويفرض عليه القيام بمجهود أكبر"⁷

كما تحدث عن الأوقاف التي تناسب قول الشعر للشاعر إذ " يسرع فيها أتية، ويسمح فيها أبيه، منها أول الليل قبل تغشي الكرى، ومنها صدر النهار قبل الغداء، ومنها يوم شرب الدواء، ومنها الخلوة في الحبس والمسي"⁸. إذ " أن التوفيق جانب ابن قتيبة في هذه الفكرة الأخيرة التي تحدد أوقات تناسب فيها خواطر الشاعر، ويفيض وعاء شعره، لأن الشعر تدفق تلقائي لا يعرف وقتا محددا، إنه أشبه بعملية المخاض الذي لا يحسب له حساب وقت معين، ومتى احترقت التجربة في بوتقة الوجدان، تصاعدت زفراتها شعرا، في أي وقت من الأوقات، أو أي مكان من الأمكنة، وتبقى لابن قتيبة حالة التهيؤ أو الصفاء أو الشفافية التي تسيطر على كل مناحي الجسد، ويبقى الجسد خاضعا لأثرها إلى حد كبير، وهنا تنتظم

1 - إحسان عباس : تاريخ النقد الأدبي : ص 101

2 - ابن قتيبة : الشعر والشعراء : ص 22 ، 23

3 - شوقي ضيف : الفن ومذاهبه في الشعر العربي، دار المعارف، ط 11، القاهرة دت : ص 25

4 - ابن رشيق : العمدة : ص 136

5 - ابن قتيبة : الشعر والشعراء : ص 20

6 - إحسان عباس : تاريخ النقد الأدبي : ص 97

7 - جمال الدين بن شيخ : الشعرية العربية، تر: مبارك حنون وآخران دار توبقال للنشر، ط1، 1996: ص

126

8 - فتحي أحمد عامر : من قضايا التراث العربي ، منشأة المعارف، الإسكندرية دت : ص 09

المعاني الشعرية وتنسق، وتستجيب لها الكلمات مؤتلفة في سلك من النظم، لتبرز روعتها وبهاءها.¹

ومن النقاد التراثيين الذين اهتموا بالشاعر نجد ابن طباطبا الذي يقسم الشعراء إلى صنفين : شاعر مطبوع وشاعر متدرب أو مبتدئ.

فأما الشاعر المطبوع فهو " من صح طبعه وذوقه و يرى بأن من كان مثله " لم يحتج إلى الاستعانة على نظم الشعر بالعروض التي هي ميزانه "2 ذلك لأنه " مستغن بطبعه عن معرفة الأوزان، وأسمائها، وعللها، لنبو ذوقه عن المزاحف منها والمستكره"³. لذلك يرى أن أمثال هؤلاء ليسوا بحاجة إلى تعلم أسس الشعر.

أما الشاعر المبتدئ فيقول فيه : " ومن اضطرب عليه الذوق لم يستغن، عن تصحيحه وتقويمه بمعرفة العروض والحدق به حتى تعتبر معرفته الاستفادة كالطبع الذي لا تكلف معه"⁴.

إذ أنه يوجه إلى تعلم الأوزان وعلم العروض ذلك لأن " الضعيف الطبع محتاج إلى معرفة شيء من ذلك يعينه على ما يحاوله من هذا الشأن"⁵. ولمثل هذا الشاعر المبتدئ يوجه هذا المؤلف كتابه " يسدي إليه النصيحة، ويعلمه أصول الصنعة الشعرية باعتباره شاعرا مجرباً"⁶، فوضع له من خلال هذه المقدمة قواعد نظم الشعر، ويرى بأن مرحلة الالتزام بهذه القواعد مؤقتة تنتهي بمجرد أن يتقن صنعه حيث قال : "... حتى تعتبر معرفته الاستفادة كالطبع الذي لا تكلف معه"⁷ وهذه المرحلة لا تعدو أن تكون "مرحلة الاستعداد والتنقيف والدرس والتحصيل"⁸ ، ومن أجل تحقق هذه الكفاءة قدم ابن طباطبا، المقاييس التي يجب أن يتبعها الشاعر المبتدئ أو المولد باصطلاح المؤلف وأرشده إلى كيفية تجاوز أزمة المعنى التي يعاني منها لينال القبول من الجمهور فقال : "والشعراء في

1 - المرجع السابق : ص 09

2 - ابن طباطبا : عيار الشعر : ص 41

3 - ابن رشيق : العمدة : ج 1 ص 141

4 - ابن طباطبا : عيار الشعر : ص 46

5 - ابن رشيق : العمدة : ص 141

6 - عيار الشعر : ص 41 (مقدمة المحقق)

7 - إحسان عباس : تاريخ النقد الأدبي : ص 124

8 - نفسه : ص 124

عصرنا إنما يثابون على ما يستحسن من لطيف ما يوردونه من أشعارهم، وبديع ما يروونه من نوادرهم وأنيق ما ينسجونه من وشي قولهم، دون حقائق ما يشتمل عليه من المدح، والهجاء، وسائر الفنون التي يصرفون القول فيها.¹

وابن طباطبا هنا يطرح قضية ملائمة المقام أو حالة المتلقي من خلال الإشارة إلى "العلاقة بين القصيدة والمقام، أو موافقة القول فيها للحال الجارية، أو الموقف، أو ظروف المستمع، ولا شك أنه يوفق فيها بين عمل الشاعر الفني، ودوره متكسبا يبغي رضا من يقدم له القصيدة لنيل الجائزة، لكسب رضاه، واتقاء غضبه".²

والمقام أو المستوى الخطابي مصطلح من صميم الدراسات اللسانية الحديثة إذ يعتبر أحد مستويي فعل الاتصال اللغوي حسب تقسيم شارود وهو " ذلك المستوى المقامي الذي تحدد فيه شروط عقد التخاطب المطابق لنوع الخطاب : غاية الفعل، هوية المشاركين، الموضوعات الواجب معالجتها والجهاز الفيزيائي للتبادل (الديكور، وسيلة الاتصال...)، ففي هذا المستوى تمارس القيود التي تسمح للاتصال/التبليغ بأن يكون فعلا لغويا أكبر نجاحا"³، فعقد التخاطب هذا حسب ابن طباطبا يفرض على الشاعر احترام هذه المقاييس في إيطار أغراض الشعر المعروفة كالمدح والهجاء ... الخ، وذلك من خلال (هذا العقد) القيود التي يمارسها من أجل نجاح فعل التبليغ وإلا فإن الشاعر المولد يحرم من القبول حيث قال : " فإذا كان المديح ناقصا عن الصفة التي ذكرناها، كان سببا لحرمان قائله، والمتوسل به. وإذا كان الهجاء كذلك أيضا كان سببا لاستهانة المهجو به وأمنه من سيره، ورواية الناس له، وإذا عتهم إياه وتفككهم بنوادره لا سيما وأشعارهم متكلفة غير صادر عن طبع صحيح".⁴

وهذا دليل على عدم نجاح التواصل بين الشاعر وجمهوره في هذه الحالة وكان هذا الوضع سببا للإفصاح عن موقفه النقدي حيال السرقات في الشعر حيث أجاز للشاعر أن يأخذ من شعر غيره بشرط أن يبدعه بصياغة جديدة.

1 - ابن طباطبا : عيار الشعر : ص 47

2 - نفسه : ص 34

3 - مونقانو - دومينيك : المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب تر محمد يحياتن، منشورات الاختلاف

ط 2005: ص 108

4 - ابن طباطبا : عيار الشعر : ص 47

II - قضايا أثارت الصراع :

1 - الصراع بين القدماء والمحدثين :

إن الصراع بين القديم والجديد أو المحدث قضية ملازمة للفكر الإنساني، وهي قضية صحية يفرضها تغيير الأنساق المعرفية السائدة في مجتمع من المجتمعات حيث يرتبط "مفهوم النسق المعرفي في الفكر الحديث بالبحوث التي قدمتها دراسة الأطر الاجتماعية للمعرفة وعلاقتها عبر العصور المختلفة ... وقد تبين أن الأنواع المعرفية تتراتب وفقا للأنماط الاجتماعية في منظومة هرمية. وفي هذا الهرم المتغير من عصر إلى آخر يخرق النوع أو الأنواع الأخرى ويخضعها لرؤيته وتوجيهه"¹.

وقضية الصراع بين القدماء والمحدثين عرفها النقد العربي منذ العصر الإسلامي "ظل لفترة طويلة يتجاذبه اتجاهان فنيان أحدهما قديم والآخر محدث"². قديم يمجّد النسق السائد ويتشبث فيه ويتعصب له، ومحدث يسعى إلى التجديد ومواكبة حركة التغيير في عصره ويرى بأن النسق السائد قد تجاوزته " الواقع الأدبي السائد بحجة تأكله وترهله، وفقده لأسباب الحية وعوامل الاستمرار والبقاء، وعجزه عن مسايرة الحاضر والتعبير عن التجارب الإنسانية المستجدة وتوقفه عن تقديم الأشكال الأدبية التي تستجيب لتطور الذوق الفني وتحولاته أو تطوره وتثريه"³. وقد تجلّى تاريخ هذه الخصومة في النقد العربي منذ أن بدأت في شكل تعصب للقديم الجاهلي ثم الأموي، من جانب بعض الرواة الأوائل، وتلامذتهم من النقاد اللغويين إلى أن تحولت بعد ذلك إلى دعوة لإنصاف المحدث على يد ابن قتيبة وبعض معاصريه من النقاد الذين نادوا بتحكيم النظرة الموضوعية في نقد الشعر، ودعوا إلى استقلال الأثر الشعري عن عصره وقائله، وإحلال مقاييس الجودة. وقد ظهر هذا الصراع من خلال بعض مقدمات بعض المؤلفات في النقد التراثي وممن تعرضوا لهذا الجانب ابن سلام الجمحي في كتابه " طبقات فحول الشعراء" حيث أعلن في حديثه عن المقاييس التي اعتمدها في تصنيف الشعراء تعصبه للقديم واعتماده على ما كان يحتج به علماء عصره فحاصره بين شعراء الجاهلية وبعض شعراء صدر الإسلام حيث قال: "

1 - د/ صلاح فضل : بلاغة الخطاب وعلم النص، عالم المعرفة الكويت 1992 : ص 09

2 - د/ عثمان موافي : الخصومة بين القدماء والمحدثين في النقد العربي القديم دار المعارف الجامعية ط3 ،

الإسكندرية 2000 : ص 13

3 - عبد الله العشي : زحام الخطابات : ص 13

فصلنا الشعراء من أهل الجاهلية والإسلام، والمخضرمين الذين كانوا في الجاهلية وأدركوا الإسلام ، فنزلنا منازلهم ، واحتججنا لكل شاعر بما وجدنا له من حجة، وما قال العلماء "1.

حيث اعتمد في تصنيفه بين شعراء الجاهلية والإسلام وكذا الشعراء المخضرمين الذين عاشوا في العصرين وقد أنزل كل واحد منهم منزلته واحتج لكل واحد منهم كما يقول بما يقال عنهم من العلماء، ليشير بعد ذلك إلى اختلاف الناس و الرواة في هؤلاء الشعراء ما جعله يعتمد منهجا في التصنيف فقال: " فاقصرنا من الفحول على أربعين شاعرا، فألفنا من تشابه شعره منهم إلى نظرائه، فوجدناهم عشر طبقات، أربعة رهط في كل طبقة، متكافئين معتدلين"2.

حيث انصب تصنيفه على " شعراء العصر الجاهلي وبعض شعراء العصر الإسلامي الذين تتمثل في أشعارهم معظم الخصائص الفنية للشعر الجاهلي "3. حيث تحدث ابن سلام عن الفحولة فكشف عن اعتماد تقاليد الجاهلية لنظم الشعر في تصنيفه للشعراء حيث اعتمد خصائصه الفنية " كجزالة التعبير ورسائته، ووضوح المعنى وصفاء الطبع، وبدئية الصورة والأخيلة"4 والتي " تفرض على الشاعر أن يلتزم المثل الأعلى للمدح، ذلك المثل الذي ارتضته العرب، ورغبت أن يكون مصورا بدقة في الشعر... وفرضت عليه تقاليد تأبى عليه أن يقوي أو تساند أو يكفى أو يوطئ"5.

وقد جاء جيل آخر عبر عن رفضه لهذه التقاليد التي أصبحت قديمة باعتبار أن مسألة " القدم والحداثة نسبية تختلف من عصر إلى آخر ومن جيل إلى جيل"6. وأن ما كان محدثا اليوم قد يصير قديما غدا ولهذا شغلت هذه القضية النقاد العرب فوجد منهم من كان يدعوا إلى إنصاف المحدث " من النقاد الذين نادوا بتحكيم النظرة الموضوعية في نقد الشعر، ودعوا إلى استقلال الأثر عن عصره وقائله، وإحلال مقياس الجودة والرداءة في نقده، محل مقياس العصر والزمن. ولكن هذه الدعوة لم تتعد في إنصافها للمحدث حد مساواته بالقديم،

1 - ابن سلام الجمحي : طبقات فحول الشعراء: ص 8

2 - نفسه : ص 8

3 - عثمان موافي : الخصومة بين القدماء و المحدثين : ص 15

4 - نفسه:ص 15

5 - ينظر: منير سلطان : ابن سلام وطبقات الشعراء : ص 18- 19

6 - عثمان موافي : الخصومة بين القدماء و المحدثين: ص 09

ذلك لأنهم لم يقبلوا الشعر المحدث على الإطلاق، ولكنهم علقوا هذا القبول على شرط، وهو تضمنه الخصائص الفنية للشعر القديم. وقد ترتب غل ذلك ظهور اتجاهين متباينين في الشعر المحدث أحدهما محافظ على الخصائص الفنية للشعر القديم، والآخر متحرر من كثير من هذه الخصائص وأدى هذا إلى تحول تيار هذه الخصومة نحو الشعر المحدث نفسه، وأصبحت بذلك خصومة بين المحدثين.

وقد نبتت بذور هذه الخصومة في نقد شعر بعض شعراء القرن الثاني كأبي العتاهية والعباس بن الأحنف، وأبي نواس ومسلم بن الوليد ثم أيفعت حول شعري أبي تمام والبحري وازدادت حدة وعنفاً¹.

وممن تعاملوا بموضوعية في الحكم على الشعر نجد الناقد ابن قتيبة وهذا ما يتجلى من خلال مقدمته المشهورة في كتاب " الشعر والشعراء " والتي تكشف من خلال الشعر والشعراء عن باحث ثاقب النظر تهيأت له "من مقومات النضج الثقافي و البصر العقلي ما جعله ذا ذوق أدبي مرهف ومنحى نقدي خاص"² وقد اعتبر بأن " جودة الشعر لا تقصر على زمان دون زمان، والجودة في نظره تتركز في الصناعة وحدها "³. حيث قال " لم يقصر الله العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن، ولا خص به قوما دون قوم، بل جعل ذلك مشتركا مقسوما بين عباده في كل دهر، وجعل كل قديم حديثا في عصره، وكل شرف خارجية في أوله."⁴

" فالحداثة عنده قفزة نوعية لا يختص بها عصر دون غيره، فكل قديم كان في عصره، وليست الحداثة ضربا من التفاضل بين أبناء العصور "⁵ وقد ضرب لذلك أمثلة من الواقع لكي يؤكد هذه النظرة فقال: " فقد كان جرير والفرزدق والأخطل وأمثالهم يعدون محدثين ، وكان أبو عمرو بن العلاء يقول : لقد كثر هذا المحدث وحسن حتى لقد هممت بروايته .

1 -المرجع السابق : ص 09

2 - د/ صلاح رزق : أدبية النص: ص 90

3 - د / يوسف نور عوض : نظرية النقد الأدبي الحديث : ص 120

4 - ابن قتيبة : الشعر والشعراء : ص 11

5 - د/ عباس عبد الواحد : قراءة النص و جمالية التلقي: ص 33

ثم صار هؤلاء قداماء عندنا ببعد العهد منهم ، وكذلك يكون من بعدهم لمن بعدنا، كالخريمي والعتابي والحسن بن هانيء وأشباههم"¹.

فهو يتحدث عن المقياس الذي اعتمده في تصنيفه للشعراء والمتمثل في معيار الجودة منفصلة عن الزمن حيث قال: " فكل من أتى بحسن من قول أو فعل ذكرناه له، وأثنينا به عليه، ولم يضعه عندنا تأخر قائله أو فاعله ، أو حادثة سنه. كما أن الرديء إذا ورد علينا للمتقدم أو الشريف لم يرفعه عندنا شرف صاحبه ولا تقدمه "².

ومن خلال موقفه من مفهوم الحادثة في الشعر خرج من دائرة الحرب المعلنة في رصيدنا على كل شعر حديث أو شاعر محدث إلى إطار موضوعي يجعل التعامل مع النص بعيدا عن التأثير بكون قائله متقدما في الزمن أو متأخرا فالقدم والحادثة بوصفهما الزماني لا دخل لهما في الحكم عنده، وتلك مبادرة أولية تحسب لابن قتيبة في مفهومه النظري، وإن لم تظهر آثارها في مجال التطبيق"³ وهو يلتقي بموقفه مع ياقوس الذي يرى بأن الحادثة " قفزة نوعية لا يختص بها عصر دون غيره فكل قديم كان حديثا في عصره، وليست الحادثة ضربا من التفاضل بين علماء العصور ... ، فكلا الناقلين يخرجان بمفهوم الحادثة عن مألوف عصره. فإذا كانت الحادثة في عصر ابن قتيبة ضربا من الابتداع المذكور لدى أقرانه فهي في عصر ياقوس تأخذ لدى رواد الحادثة شكل الحرب الطاحنة على كل منهج قديم ومن ثم كانت دعوتها إلى منهج جديد، ينهض بالمتلقي في دراسة النص إلى استدعاء الخبرات الماضية و تقديمها للحاضر بشكل جديد عند ياقوس أو استدعاء معطيات النص، واحترام ذاتيته بصرف النظر عن زمن قائله عند ابن قتيبة"⁴.

إذن فابن قتيبة من خلال موقفه هذا يعتبر بأن الشعرية غير متعلقة بزمن دون زمن والشعرية هي " الفرع العلمي الذي يعالج قوانين التركيب المضافة إلى الخطاب لتجعل منه نصا يعتبر بمثابة محكي أو قصيدة أو محاولة نقدية تطرح عندئذ مسألة تعيين الخاصية الأساسية في فعل صنع المحكي."⁵ ولهذا فمقدمته "بيان بموقفه النقدي عامة ودستور مستقل

1 - المرجع السابق : ص 33

2 - ابن قتيبة : الشعر و الشعراء : ص11

3 - د/ عباس عبد الواحد قراءة النص و جمالية التلقي : ص 86 ، 87

4 - نفسه : ص 33

5 - بول ريكور : من النص إلى الفعل، تر محمد برادة وحسان بورقية : ص 8 ، 9

مستقل بمواده وأحكامه"¹ وهي بمثابة رؤية نقدية " إذ يعتبر تصريحه هنا رؤية نقدية كان يسعى من ورائها إلى تصحيح بعض المفاهيم المسيطرة على حركة النقد في عصره، حيث كانت القناعة لدى أقرانه ومعاصريه بقيمة الشعر القديم في أنساقه التعبيرية دافعا لهم إلى رد الشعر الحديث لتأخر قائله في الزمن فكم من شعر استهجنه النقاد، أو أوردوه على صاحبه ولا عيب له عندهم حقيقة - كما يقول ابن قتيبة - إلا أنه متزامن معهم، وفي تاريخ الشعر العربي مواقف كثيرة تجسد هذا المفهوم، و فيه إلى ذاك أحكام تقريرية حادة في الدعوة إلى نبذ الشاعر المحدث. ومن ثم كانت رؤية ابن قتيبة تمثل صيحة مناهضة لذلك التوجه الذي ساد الحركة النقدية أو غلب عليها آنذاك.² وقد كان طرحه في مسألة القديم والمحدث موضوعيا .

وهو ما ظهر في مقدمة وقد انسحب هذا الصراع بين القدماء والمحدثين إلى نقاد الأندلس وهو ما ظهر في مقدمة ابن بسام الشنتريني في كتابه " الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة حيث أشار إلى تفضيل أدب المحدثين بالأندلس على أدب القدماء في الشرق حيث اعتبر أن " الإحسان غير محصور، وليس الفضل على زمن بمقصور وعزيز على الفضل أن ينكر، تقدم به الزمان أو تأخر، ولحى الله قولهم: الفضل للمتقدم ، فكم دفن من إحسان وأخمل من فلان ولو اقتصر المتأخرون على كتب المتقدمين لضاع علم كثير وذهب أدب عزيز"³، وهو هنا يلتقي في طرحه مع ابن قتيبة في اعتماده مقياس الجودة في التصنيف بغض النظر عن مسألة القدم والحداثة.

نستنتج من كل ما قيل أن مسألة النزاع بين القديم والحديث قضية شغلت الفكر النقدي منذ القديم إل اليوم.

1 - د/ إحسان عباس : تاريخ النقد الأدبي ، دار الشروق للنشر و التوزيع، عمان 2006 : ص: 94

2 - د/ عباس عبد الواحد : قراءة النص و جماليات التلقي : ص 32

3 - نفسه : ص 14

2 - قضية اللفظ والمعنى :

لم تنل قضية من قضايا النقد العربي ما نالته قضية "اللفظ والمعنى" من إتمام وشدة جدل فقد فرغ لها جهابذة النقد العربي أو سعوها تحليلاً وتقنيًا ، منذ الجاحظ حتى عبد القاهر الجرجاني، مروراً بابن قتيبة وابن طباطبا العلوي وقدامة بن جعفر. وقد ظهر اهتمام النقد التراثي بهذه القضية وكانت واحدة من القضايا المركزية والتي شغلت الفكر النقدي العربي. وقد استخدموا " مصطلح المعنى بداليتين، لا دلالة واحدة، فبدأ واضحا أن المقصود منه أحيانا الفكرة الذهنية المجردة، وهي التي تواضع الناس في بيئة ما أو زمن ما على قبولها واستحسانها أو رفضها واستهجانها. كما بدأ المقصود منه، في سياقات أخرى وأحيان مغايرة، المعنى الشعري الذي يتمثل في ذلك المعنى بعد أن يصاغ صياغة فنية خاصة، وتمتزج هيئته الفنية بمادته الدلالية في كل لا يتجزأ على نحو يستثير معه لدى المتلقي استجابة لا يمكن أن تعزي لأيهما منفصلا أو مستقلا وإن جاء التعبير عن تلك الاستجابة لدى بعض النقاد مرجحا لهذا الجانب أو ذاك " ¹، وقد برر اهتمام هؤلاء من خلال مقدماتهم.

ومنهم ابن قتيبة الذي تحدث عن هذه القضية في الجزء النظري من مقدمته الشعر والشعراء حيث قسم أنواع الشعر باعتماد ثنائية اللفظ والمعنى فقال : " تدبرت الشعر فوجدته أربعة أضرب :

1 - " ضرب منه حسن لفظه و جاد معناه " ²

2 - " ضرب منه حسن لفظه وحلا فإذا أنت فتشته لم تجد هناك فائدة في المعنى " ³

3 - " ضرب منه جاد معناه و قصرت ألفاظه عنه " ⁴

4 - " ضرب منه تأخر معناه و تأخر لفظه " ⁵

1 - صلاح رزق : أدبية النص : ص 84

2 - ابن قتيبة : الشعر و الشعراء ص 12

3 - نفسه : ص 13

4 - نفسه : ص 14

5 - نفسه : ص 15

وقد مثل كل قسم بنماذج شعرية مع توضيح مواضع الجودة والتقصير سواء كان ذلك في المعنى أو اللفظ.

" إذ يجد أن الشعر أربعة أضرب، لا تسمح العلاقة المنطقية - في نظره - بأكثر منها : لفظ جيد ومعنى جيد، لفظ جيد ومعنى رديء، لفظ رديء ومعنى جيد ولفظ رديء ومعنى رديء " ¹.

ومن خلال هذا التقسيم يبدوا أن ابن قتيبة قد تهيأت له من مقومات النضج الثقافي والبصر العقلي ما جعله ذا ذوق أدبي مرهف، ومنحى نقدي خاص، وهذا المنحى الخاص هو البحث في الأدب بروح العلم، هو التمشي بالنقد الأدبي إلى أن يكون كالعلم دقة وتحديداً، هو تحليل الشعر إلى عناصره، وحصر حالات كل عنصر، هو تنظيم ما عرف من الآراء و الأفكار قديما في النقد، ووضعها في أصول عامة، وقواعد عامة يلمسها الناقد ويضع يده عليها. ²

وقد اتخذ هذه الضروب الأربعة " مقياسا لضبط أقسام الشعر الأربعة المعروفة" ³ وبالتالي مقياسا لتصنيف الشعراء على أساس جودة الشعر رغم أن البعض يتهمة بكون هذه المقاييس لم تلتزم في جوهر الكتاب ولم يبرز الجودة على أساس منها وإنما استعاض عنها بانطباعات من قبيل " ومن جيد شعره قوله: و يستجاد من شعره" ⁴ "وأجود شعره" ⁵.

" وانطلاقا من ثنائية اللفظ والمعنى يقسم ابن قتيبة الشعر بعد تدبره إلى أربعة أضرب: ضرب منه حسن لفظه و جاد معناه، كقول القائل في بعض بني أمية :

في كفة حيزران ريحه عبق من كف أروع في عرنينه شمم

يفغى حياء ويفغى من مهابته فما يكلم إلا حين يبتسم

1 - إحسان عباس : تاريخ النقد الأدبي : ص 96

2 - صلاح رزق : أدبية النص : ص 90

3 - د/ فتحي أحمد عامر: من قضايا التراث العربي : ص 18

4 - حمدي صمود : التفكير البلاغي عند العرب أسسه و تطوره إلى القرن السادس : ص 320

5 - نفسه ص : 320

ويلحق ابن قتيبة على هذين البيتين بأنه لم يقل في الهيبة شيء أحسن منه. ثم يورد أمثلة أخرى عديدة داخلية في هذا الضرب. النوع الذي أشرنا من مصطلحي اللفظ والمعنى استخدمنا فيه استخداما اصطلاحيا، غز من الواضح أن اللفظ يعني البنية الأدائية الشكلية، والمعنى يجاوز المعنى الذهني المجرد إلى المعنى الشعري.

وضرب منه حسن لفظه وحلا، فإذا أنت فتشته لم تجد هناك فائدة في المعنى، كقول القائل:
ولما قضينا من منى كل حاجة و مسح بالأركان من هو ماسح

وشدت على حذب المهاري رحالنا

ثم يعقب عليها قائلا : هذه الألفاظ كما ترى أحسن شيء مخارج ومطالع ومقاطع، وإذا نظرت إلى ما تحتها من المعنى وجدته : ولما قطعنا أيام منى، واستلمنا الأركان، وعالينا إبلنا الأنضاء، ومضى الناس لا ينتظر الغادي الرائح، ابتدأنا في الحديث، وسارت المطى في الأبطح.

فابن قتيبة يعيب من هذه الأبيات قدرا من النثرية حال دون تمام انتقال المعنى الذهني المجرد إلى معنى شعري تتميز فيه المقومات الفنية وتتضح فعالياتها.

أما الضرب الثالث عنده فهو الذي جاد معناه وقصرت ألفاظه عنه، كقول ليبد بن ربيعة:

ما عاتب المرء الكريم كنفسه والمرء يصلحه الجليس الصالح

ويعقب عليه قائلا: هذا وإن كان جيد المعنى والسبك فإنه قليل الماء والرونق. ومن الواضح أن هذا التعليق يدل على قوة حضور المعنى الذهني ومبادرته ابن قتيبة بقوة، وعدم قدرة السبك، مع جودته، على النهوض بذلك المعنى إلى درجة الشعرية. والقيمة التي تستمد من هذا التعليق وتعد أساسا منهجيا جيدا تتمثل في وجوب علو نسبة الانصهار بين مكونات البنية الشعرية وانفاء إمكانية أن يستقل أحدهما بالعبء حتى يجبر نقص الآخر وإن كان هذا النقص هينا يسيرا.

أما الضرب الأخير فهو الذي تأخر معناه وتأخر لفظه كقول الأعشى في امرأة :

وفوها كأقاصي غداة دائم الهطل

كما شيب براح با رد من عسل النحل

وبرغم ما نستشعره من أن المعنى في البيتين يجاهد جهادا شاق ليخرج من إطاره الذهني المجرد كي يكتسب مقومات الشعرية، وبرغم أن البنية الشكلية تعتمد على دعائم موضوعية ... فإننا نشارك ابن قتيبة في الرأي لافتقادها شيئا آخر هو الروح الشعرية التي لا تتأتى إلا من هيئة خاصة لتمازج العنصرين، ونسبة معينة تذوب عندها مقومات استقلالية كل عنصر، ويتشكل منها كل فني موحد وبنية غير قابلة للانقسام¹.

إن ابن قتيبة من خلال هذا التقسيم ينم عن وعي نظري يتمثل في كون جهده "المحاولة الأولى لتأصيل علم للنقد، ترتد فيه النتائج إلى أسبابها من غير أن يغفل عن خصوصية المادة الأدبية موضوع هذا العلم، وأن لها طبيعة متميزة، تجعل للذوق والإحساس الفردي نصيبا فعلا إلى جانب تلك الأسس الموضوعية"² وهو "أول من اجتهد بمحاولة التأصيل المنهجي لما يمكن تسميته بعلم النقد الأدبي"³. وقد أحدث بذلك نقلة نوعية في هذا المجال.

ومن النقاد التراثيين الذين تناولوا قضية اللفظ والمعنى نجد قدامة بن جعفر من خلال كتابه "نقد الشعر" إذ يبرز الهدف الأساسي من تأليف كتابه وهو الاهتمام بأهم الأسس الموضوعية التي تحكم على قيمة الشعر حيث قال "فأما فأما علم جيد الشعر من رديئه فإن الناس يخطئون في ذلك منذ تفقهوا في العلوم، فقليل ما يصيبون ولما وجدت الأمر على ذلك وتبينت أن الكلام في هذا الأمر أخص بالشعر من سائر الأسباب الأخرى، وأن الناس قد قصرُوا في وضع كتاب فيه، رأيت أن أتكلم في ذلك بما يبلغه الوسع"⁴ إذ ينطلق قدامة من النص الأدبي ذاته، وهو "يرى منذ لحظة انطلاقته نصا جيدا ونصا رديئا"⁵، وقد بنى معايير الحكم على قيمة الشعر و تخليص جيده من رديئه على ثنائية اللفظ والمعنى إذ يستخلص "للشعر أربع مقولات رئيسية هي: اللفظ، المعنى، الوزن والقافية، ويتفرع منها ضروب تأتلف فيها هذه المقولات"⁶، ومن هنا نجد أن قدامة اعتمد في متن كتابه اللفظ

1 - صلاح رزق : أدبية النص : ص 90، 91، 92 ، بتصرف

2 - نفسه : ص 92

3 - نفسه : ص 94

4 - قدامة بن جعفر : نقد الشعر: ص 62

5 - صلاح رزق : أدبية النص : ص 96

6 - يوسف نور عوض : نظرية النقد الأدبي الحديث : ص 121

والمعنى " كأساسين بالإضافة إلى الوزن والقافية ثم حدد الأجناس التي بها يمكن تمييز الجودة والرداءة من خلال الجمع بين هذه العناصر الأربعة وهي ثمانية أجناس:

"1- انتلاف اللفظ مع المعنى

2- انتلاف اللفظ مع الوزن

3- انتلاف المعنى مع الوزن

4- انتلاف المعنى مع القافية"¹

بالإضافة إلى "الأربعة المفردات البسائط يدل عليها حدة"² وهي اللفظ والمعنى والوزن والقافية.

كما نعت الجودة في هذه الأجناس الثمانية فبدأ بالعناصر الأربعة المفردات ثم أشار إلى نعت أهم أغراض الشعر كالمدح والهجاء... وبعدها انتقل إلى نعت عناصر الشعر مركبة فتناول انتلاف اللفظ مع المعنى مع ذكر أنواعه وتحديد مفهوماتها كالمساواة والإشارة... إلخ، وبعده انتلاف اللفظ والوزن ثم انتلاف المعنى والوزن وانتلاف القافية والمعنى. بإيجاز بالمقارنة مع النوع الأول وتناول أيضا عيوب الشعر حيث قدم من خلاله ملامح نظريته النقدية من خلال تشكيل "الوجه السلبي لمقومات الجودة إذ يعرض فيه لنقائص هذه العناصر مفردة ومؤتلفة"³ بالطريقة التي تناولها في سابقا مستتبلا نعت الجودة بالعيوب ، وهكذا " تكتمل لقدامة أسسه النظرية النقدية التي كانت قضية اللفظ والمعنى محورها ومنطلقها. والتي كانت اختياراته الشعرية دعما لها، فجاءت متممة بدقة التقسيم وصرامة التحديد دون أن تهدر المنطقة الخاصة بالذوق النقدي البسيط ودور القارئ المدرب المتمرس بتميز الحساسية الخاصة بالجيد والرديء."⁴، مما ينم عن وعي نظري ورؤية واضحة ساهمت في تطور " نظرية الأدب في التراث العربي"⁵ لذا يعد كتابه من أهم كتب المصادر التراثية إذ نستنتج أن قدامة بن جعفر يلتقي مع ابن قتيبة في تقسيم الحكم على

1 - قدامة بن جعفر : نقد الشعر : ص 70

2 - نفسه : ص 70

3 - صلاح رزق : أدبية النص: ص 98

4 - صلاح رزق : أدبية النص: ص 99

5- يوسف نور عوض : نظرية النقد الأدبي : ص 120

جودة الشعر باعتماد ثنائية اللفظ والمعنى ولكنه يختلف معه في كون قدامة أضاف إلى هذه الثنائية الوزن والقافية.

وممن أثار قضية اللفظ والمعنى ابن طباطبا العلوي من خلال مقدمة كتابه " عيار الشعر " حيث يرى بأن للمعاني ألفاظا تشاكلها و شبه العلاقة بين اللفظ والمعنى بالعلاقة بين الروح و الجسد حيث احتج بقول أحد الحكماء " للكلام جسد و روح، فجسده النطق وروحه معناه"¹ إذ يرى أن المعاني قد تكون حسنة تشينها الألفاظ التي تبرز فيها، وأن بعض المعاني القبيحة قد يبتذل لها معرض حسن إذ على الشاعر أن يتخير الألفاظ المناسبة للمعاني التي يريد التعبير عنها. إذ يعد بذلك من بين الذين سوا " بين قيمة اللفظ وقيمة المعنى "² إذ يرى بأن كلا من اللفظ والمعنى وجهان لعملة واحدة " حيث ربط تصوره للعلاقة بين المعنى واللفظ في القصيدة على نحو العلاقة بين الروح والجسد. وهو ينسب هذا الرأي لبعض الحكماء ... وذلك تصور يجعل الصلة بين اللفظ والمعنى عند ابن طباطبا أوضح مما رسمه ابن قتيبة، على أنه ربما لم يقتصر في العلاقة بينهما على الوجوه الأربعة التي عدها ابن قتيبة، لأنه لا يريد أن يلتزم بقسمة منطقية،...مما يشير إلى أن ابن طباطبا يصدر في حديثه عن مستويات مختلفة وعن تذوق خالص لا علاقة له بالتقسيم المنطقي"³ ، فجاء بطرح مختلف لقضية اللفظ والمعنى.

❖ وممن تميزوا في طرحهم لهذه القضية نجد عبد القاهر الجرجاني من خلال كتابه "دلائل الإعجاز" الذي أشار إلى قضية اللفظ والمعنى في إطار حديثه عن الفصاحة والبلاغة حيث ربطهما بقضية اللفظ والمعنى حيث " انطلق الجرجاني من كون القرآن على حد من الفصاحة تقصر على قوى البشر"⁴ ليثبت إعجازه فرأى أن إدراك فصاحة و بلاغة القرآن إلى حد الإعجاز متوقفة على معرفة الشعر الذي يمثل ديوان العرب وأنه به " كان ميدان القوم إذا تجاروا في الفصاحة والبيان وتنازعا فيهما قصب الرهان "⁵ واعتبر الجرجاني بأن " تفاوت الفصاحة مزية ترتد إلى المتكلم باللغة لا إلى واضع اللغة، ومن ثم فمناط المفاضلة بين الفصحاء مردود إلى أفضلية

1 - ابن طباطبا : عيار الشعر: ص 49

2 - عباس عبد الواحد : قراءة النص وجمالية التلقي : ص 128

3 - إحسان عباس : تاريخ النقد الأدبي : ص 128

4 - صلاح رزق : أدبية النص : ص 41

5- الجرجاني : دلائل الإعجاز : ص 23

اختيار عن اختيار .. لا اختيار لفظة دون لفظة ، وإنما اختيار تأليف ونظم دون تأليف و نظم سواء ¹ وقد تحدث أيضا عن الفصاحة و البلاغة بين اللفظة والمعنى حيث رأى بأن " الفصاحة في اللفظ صفة معقولة - لا محسوسة - ولا يقصد بها إلا دلالاته على معناه، ومن ثم ففصاحة اللفظ وصف له من جهة معناه لا من جهة نفسه . ويترتب على ذلك أن الفرق بين كلام وكلام لا يرتد إلى استبدال لفظ بلفظ ، وإنما يرتد إلى مناسبة الألفاظ للمعاني، وإلى ما يدل عليه بالألفاظ دون الألفاظ ذاتها ².

وقد جاء عبد القاهر الجرجاني بطرح جديد لقضية اللفظ والمعنى حيث رفض ما ذهب إليه أولئك المنحازين إلى اللفظ حيث يرى بأن " الانحياز إلى اللفظ قتل الفكر الذي يعتقد عبد القاهر الجرجاني أنه وراء عملية أدق من الوقوف عند ميزة لفظه دون أخرى... ومن جهة ثانية نجد عبد القاهر الجرجاني قد خطاً المنحازين إلى المعنى بشدة ³

"فوجد المؤلف أن بعض النقاد والبلاغيين في عصره قد أسرفوا في تعظيم اللفظ ولذلك وقف يقاوم هذا التيار ويرد على اللغظيين وشبهاتهم وفساد ذوقهم... لقد اهتم كثيرا بالرد على اللغظيين وتفنيد أرائهم، وأرجع المزية في الكلام إلى النظم أو توخي معاني النحو، ولذلك لا تتفاضل الألفاظ من حيث هي ألفاظ مجردة ولا من حيث هي كلم مفردة، وإن القضية وخلافها تثبت لها في ملائمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها أو ما أشبه ذلك مما تعلق له بصريح اللفظ ⁴ وهو ما اصطلح عليه بنظرية النظم التي اشتهر بها عبد القاهر الجرجاني "التي وضح فيها أن مهمة النحو لا تتعلق بجوانب الصحة في التركيب النحوي للجملة فقط، وإنما تتعدى ذلك إلى المعنى والعلاقات بين الجمل وإلى طريقة رصف الكلام والمعرفة بمواضعه واستغلال أساليب الاستعارة والكناية والتمثيل وسائر ضروب المجاز التي هي من مقتضيات النظم وإدراك آلة البيان ⁵

" يعتبر ما بلوره الجرجاني في نظرية النظم في بعض جوانبها بوصف النظم دليلا على الكفاءة الذهنية التي يعتمد عليها المرسل في إنجاز الخطاب بناء على المواءمة بين الكفاءة

1- صلاح رزق : أدبية النص : ص 40

2 - محمد العمري : البلاغة العربية أصولها وامتداداتها : د ط ، أفريقيا الشرق 1999: ص357

3 - إحسان عباس : تاريخ النقد الأدبي : ص: 429، 430

4 - د. أحمد مطلوب: عبد القاهر الجرجاني : بلاغته ونقده ، وكالة المطبوعات ، ط1 : بيروت 1973

5- الموسوعة العربية العالمية

اللغوية الكامنة في ذهن وعناصر السياق الخارجي، وقد مثل للنظم في مستوى التراكيب بوصفه أبرز مستوى تتجلى فيه تلك الكفاءة".¹

وبالعودة إلى مصنفات المغاربة نجد أن قضية اللفظ والمعنى قد ذكرت من خلال مقدماتهم حيث بنى هؤلاء مختاراتهم الأدبية بناء على مقاييس اللفظ والمعنى حيث قال ابن عبد ربه في مقدمة العقد الفريد " وقصدت من جملة الأخبار وفنون الآثار أشرحها جوهرًا، وأظهرها رونقًا وألطفها معنى وأجزلها لفظًا، وأحسنها ديباجة، وأكثرها حلاوة"² نلاحظ بأن المؤلف بنى مقاييس جودته مختاراته على جودة اللفظ وحسن المعنى وقال صاحب زهر الآداب أبو إسحاق الحصري: " هذا كتاب اخترت فيه قطعة كاملة من البلاغات في الشعر والخبر مما حسن لفظه و معناه و استبدل بفحواه على وغزاه، ولم يكن شاردًا ولا ساقطًا سوقيًا"³ حيث اعتمد في مختاراته ما تميز بحسن اللفظ.

وهذا دليل على أن أصحاب هذه المؤلفات لم يهتموا بقضية الصراع بين اللفظ والمعنى بالحدة التي كانت لدى المؤلفين.

3 - قضية السرقات :

تعتبر قضية السرقات الشعرية من أهم القضايا التي أثارت جدلا في النقد التراثي وهي قضية " قديمة في الأدب العربي وقد وجدت بين شعراء الجاهلية وفطن إليها النقاد والشعراء ولحظوا مظاهرها بين امرء القيس وطرفة بن العبد وبين الأعشى والنابغة الذبياني وبين أوس بن حجر وزهير بن أبي سلمى، وكان حسان بن ثابت يعتز بكلامه وينفي عن معاينة الأخذ والإغارة فيقول: "

لا أسرق الشعراء ما نطقوا بل لا يوافق شعرهم شعري"⁴

"وقد انشغل النقاد القدماء فترة طويلة من الزمن بدراسة قضية السرقات، وبذلوا جهودا مضيئة في ذلك وانتهوا إلى نتيجة أخذوا يدورون حولها كثيرا، وهي التفرقة بين

1 - عباس عبد الواحد : نظرية القراءة وجمالية التلقي : ص 87

2 - ابن عبد ربه :العقد الفريد : ص5

3 - نفسه: ص 2

4 - الجرجاني بلاغته و نقده: ص 228

السرقعة المذمومة والسرقعة المحمودة على اعتبار أن السرقعة المذمومة هي نقل المعنى أو اللفظ دون تحرير فني، أما السرقعة المحمودة فهي نقل المعنى أو اللفظ مع شيء من التحرير الفني، ولذا اعتبرها بعضهم نوعاً من الإبداع الفني¹. يولده الشاعر من معان سابقة.

❖ ويعد ابن سلام الجمحي واحد من أولئك الذين فصلوا الحديث في هذه القضية من خلال مقدمة كتابه طبقات فحول الشعر فذكر أسبابها وظروف انتشارها في عصره فقال: " وفي الشعر مفعول مفتعل موضوع كثير"²، ثم عرف الشعر المنتحل بوصف خصائصه فقال: "... لا حجة في عربيته، ولا أدب يستفاد، ولا معنى يستخرج، ولا مثل يضرب، ولا مديح رائع، ولا هجاء مقتع، ولا فخر معجب، ولا نسيب مستطرف"³، واعتبر ابن سلام هذه الخصائص بمثابة سمة أو علامة يعرف بها هذا الشعر؛

وصف بعد ذلك أسباب انتشار هذه الأشعار وتداولها ومنها :

✓ أولاً: " أن الرواة تداولوها من كتاب إلى كتاب و لم يأخذوها عن أهل البادية، و لم يعرضوه على العلماء، وليس لأحد إذا أجمع أهل العلم والرواية الصحيحة على إبطال شيء منه أن يقبل من صحيفة، ولا يروى عن صحفي"⁴؛

✓ ثانياً: القصاص الذين روى هذه الأشعار وهم يروون سيرهم ومغازيهم وقد خصص المؤلف اتهامه لمحمد بن إسحاق بن يسار مولى آل مخرمة فقال: " وكان ممن أفسد الشعر وهجنه وحمل كل غثاء منه، محمد بن إسحاق بن يسار مولى آل مخرمة، وكان أكثر علمه بالمغازي والسير وغير ذلك وقبل عنه الناس الأشعار فكتب أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعراً قط وأشعار النساء فضلاً عن الرجال، ثم جاوز ذلك إلى عاد وثمرود، فكتب لهم أشعاراً كثيرة، وليس بشعر، إنما هو كلام مؤلف معقود بقواف"⁵؛

1- عثمان موافي : الخصومة بين القدماء و المحدثين، ص: 228، 229

2 - ابن سلام الجمحي : طبقات فحول الشعراء: ص 2

3 - نفسه: ص 2

4 - نفسه : ص 2

5 - نفسه : ص 3

✓ ثالثا : رواية الشعر في غير أهله حيث ذكر المؤلف بأن بعض رواة العلم "يغلطون في الشعر ولا يضبط الشعر إلا أهله"¹؛

✓ رابعا : ذهاب الشعر وسقوطه بعد ظهور الإسلام وانشغال العرب بالفتوح والغزو وهلاك الكثير من حفظته ورواته حيث قال: "ومما يدل على ذهاب الشعر وسقوطه قلة ما بقي منه بأيدي الرواة المصححين لطرفة وعبيد، اللذين صح لهما قصائد بقدر عشر، وإن لم يكن لهما غيرهن، فليس موضعهما حيث وضعا من الشهرة والتقدم"²؛

✓ خامسا : استغلال بعض العشائر لشعر شعرائهم حيث نسبوا بعض الأشعار إليهم من أجل إلحاق الوقائع المذكورة فيها لهم بالإضافة إلى كذب بعض الرواة كحماد الراوية.

وقد وصف المؤلف علاجا لهذه الظاهرة من خلال دعوته إلى اعتماد مصادر موثوقة لأخذ الشعر وقد اعتمد مصدرين أساسيين هما: أهل البادية وأهل العلم والرواية الصحيحة قاصدا النقاد .

ومن خلال طرحه لهذه القضية يكون ابن سلام الجمحي قد أدرك منذ زمن " جوهر فكرة تناص Inter textualizatio والتي نقول بها في وقتنا الحالي – والتي تعني في مفهومها المبسط أن الإبداع الأدبي إنما يستند على الخبرة الأبية السابقة، ذلك أن الأدب الجديد انزياح عن الأدب القديم، ولما كانت خبرة الشاعر الجاهلي تختلف عن خبرة الشاعر الإسلامي، كان من الضروري أن يعمل مفهوم التناص عند هذين الشاعرين بأسلوب مختلف، وأوجب ذلك أن يصنف محمد بن سلام شعراء كل فئة في مجموعة منفردة، واعتمد في تصنيف الشعراء في طبقاتهم على مبدئين أساسيين هما: التجانس والكمية، ونقول في ذلك، إذا كان التجانس يجيز وضع الشعراء في طبقات متماثلة، فإن الكثرة لا تجيز ذلك في أحوال كثيرة، ومهما يكن من أمر فالدليل على أن محمد بن سلام كان يعي جوهر مفهوم التناص تفسره الكثرة من منظور أنها كانت تعني عنده الخبرة، وبالتالي فإن الشاعر المكثّر أكثر خبرة من الشاعر المقل؛ وذلك ما يجيز تصنيف هؤلاء في طبقات

1 - المصدر السابق: ص 3

2 - نفسه : ص 8

مختلفة، ويبدو واضحاً أن محمد بن سلام الجمحي كان مدركاً أيضاً للمفهوم الذي نطلق عليه في الوقت الحاضر مصطلح "ريجستر"؛ وذلك ما أجاز له أن يضع شعراء المراثي والقرى في فصائل مختلفة، ولا شك أن مفهوم "الريجستر" يرتبط ارتباطاً وثيقاً بمفهوم التناص؛ وذلك من حيث أن الخبرة في "الريجستر" تساعد كثيراً على التعبير الأدبي في المجال المتخصص.¹ وهذا دليل على نظريته الثاقبة في مجال النقد الأدبي وعلم الأدب.

ومن النقاد الذين تناولوا قضية السرقات الشعرية نجد ابن طباطبا العلوي في كتابه عيار الشعر حيث عبر عن موقفه من القضية حينما أشار إلى محنة الشعراء المولدين، إذ يرى أنهم في محنة أشد من محنة القدماء لأنهم "سبقوا إلى كل معنى بديع ولفظ فصيح..."² ولهذا وضع ابن طباطبا قانوناً للأخذ والسرقة. فقال بأن الشاعر "ولا يغير على معاني الشعر فيودعها شعره، ويخرجها في أوزان مخالفة لأوزان الأشعار التي يتناول منها ما يتناول، ويتوهم أن تغييره للألفاظ والأوزان يستر سرقة بل يديم النظر في الأشعار التي قد اخترناها لتلتصق معانيها بفهمه، وترسخ أصولها في قلبه، وتصير مواد لطبعه، ويدرب لسانه بألفاظها؛ فإذا جاش فكره بالشعر أدى إليه نتائج ما استفادة مما نظر فيه من تلك الأشعار، فكانت تلك النتيجة كسبيكة مفرغة من جميع الأصناف التي تخرجها المعادن"³.

وقد عالج المؤلف موضوع السرقات من خلال حديثه عن "المعاني الشعرية وأشار إلى أن الشعراء السابقين غلبوا عليها فضاق السبيل أمام المحدثين ولم يكن من التقليد والأخذ بد، ويرى أنه ينبغي أن لا يغير الشاعر على معاني الشعر فيودعها ويمزجها في أوزان مخالفة لأوزان الأشعار التي يتناول منها ما يتناول لأن هذا لا يستر سرقة وإنما ينبغي عليه أن يديم النظر في الأشعار لتعلق معانيها لفهمه وترسخ أصولها في قلبه وإذا تناول الشاعر المعاني التي سبق إليها فأبرزها في أحسن الكسوة التي عليها لم يعب بل وجب له فضل لطفه وإحسانه فيه"⁴.

1 - يوسف نور عوض : نظرية النقد الأدبي الحديث : ص 118 ، 119

2 - ابن طباطبا : عيار الشعر : ص 46

3 - نفسه : ص 47 ، 48

4 - الجرجاني بلاغته ونقده : ص 176

ومن خلال هذه الرؤية يكون ابن طباطبا قد وضع مفهوما جديدا للسرقات، ذلك أن الشاعر السارق هو الذي يسطو على أعمال غيره دون أن يستنبطها، وأما الشاعر المبدع فهو الذي يديم القراءة في أشعار غيره حتى تصبح له طبعاً، فإذا نظم اختط لنفسه طريقاً مغايراً هو الذي نسميه في وقتنا الحاضر بالانزياح؛ فابن طباطبا يرى بأن الشاعر لا بد له أن يطلع على أشعار غيره وقد أبدع من خلالها دون أن يغير على أشعار غيره، وهو يعد بذلك من أوائل من تحدثوا عن مفهوم التناص بالمصطلح الحديث، الذي طرحه الشكلاوني في بدء " الاعتراف بقيمة هذه السمة اللغوية. وقد كتب شكوفسكي يقول : " إن العمل الفني يدرك في علاقته بالأعمال الفنية الأخرى، وبالأستناد إلى الترابطات التي نقيمها فيما بينها. وليس النص المعارض وحده الذي يبدع في توازن وتقابل مع نموذج معين، بل إن كل عمل فني يبدع على هذا النحو". ولكن باختين هو أول من صاغ نظرية بآتم معنى الكلمة في تعدد القيم النصية المتداخلة. فهو يجزم بأن عنصراً مما نسميه رد فعل على الأسلوب الأدبي السابق يوجد في كل أسلوب جديد " ¹.

نستنتج في النهاية بأن كلام الناقلين ابن سلام الجمحي وابن طباطبا العلوي اتفقا في طرح فكرة التناص رغم أن كل واحد منهما عالج قضية السرقة من جانب مختلف عن الآخر حيث تناولها صاحب الطبقات ساعياً إلى التمييز بين المنحول وغير المنحول من أجل تصنيف طبقاته بينما تناولها صاحب عيار الشعر من باب البحث عن حل لمأزق الشعراء المولدين الذين سبقوا إلى المعاني من طرف القدماء.

وقد ربط ابن طباطبا بين مفهوم الشعر والشاعر إذ يرى بأن الشاعر المتمرس ليس بحاجة إلى هذه الأسس التي يرسمها من خلال نظريته في علم الشعر، وإنما الشاعر الذي توجه له هذه الأسس هو الشاعر المبتدئ الذي لم يتمرس الشعر، حيث يقول: "ونظمه محدود؛ فمن صح طبعه وذوقه لم يحتج إلى الاستعانة على نظم الشعر بالعروض التي هي ميزانه، ومن اضطرب عليه الذوق لم يستغن عن تصحيحه وتقويمه بمعرفة العروض والحذف به، حتى تعتبر معرفته المستفادة كالطبع الذي لا تكلف فيه" ².

1 - ترفيطان طودروف : الشعرية : تر : شكري المبخوت، رجاء بن سلامة : دار تويقال للنشر، ط1، المغرب

1987 : ص 41

2 - نفسه: ص 41

4 - المركزية بين المشرق والمغرب :

بعد الفتح الإسلامي للمغرب والأندلس أقبل علماء هذا الأفق على الآداب والعلوم المشرقية ينهلون منها فنبغوا إلى درجة التأليف في العلوم المختلفة وقد وصلت هذه المنافسة التي أدت إلى بروز ظاهرة المركزية بين المشرق والمغرب من خلال بعض مقدمات المصنفات المغاربة حيث نزع بعضهم إلى تحويل المركزية عن المشرق وقد برز ذلك من خلال مقدمات بعض هذه المصنفات منها :

مقدمة " العقد الفريد " لصلحبه ابن قتيبة هذا المصنف الذي تنم عن تلميح بهذه النزعة من خلال شعر المؤلف " رغم كون مادة الكتاب مشرقية في معظمها، أكثر من كونها أندلسية. وقد رأى ابن عبدربه في خطبة الكتاب، أنه بذلك يقدم لأهل الأندلس كتابًا يغنيهم عن الرجوع إلى كتاب سواء فيما يتصل بثقافة المشرق. ولكن الأرجح أن الكتاب نابع من منافسة الأندلسيين للمشاركة، حين أراد أن يبين تفوقه في الثقافة المشرقية نفسها نفسها¹. ولما سمع به صاحب بن عباد والكاتب المشرقي سارع إلى " طلبه واقتنائه شوقا وتلهفا إلى معرفة أدب المغرب وفكره، فانكب عليه يلتمه بشغف، ولكن سرعان ما ألقاه جانبا وقال قولته المشهورة " هذه بضاعتنا ردت إلينا " ... لقد اندهش صاحب بن عباد وشعر بخيبة الأمل لأنه نسي أن بن عبد ربه أندلسي وأنه عندما ألف كتابه ألفه للأندلسيين والمغاربة لا من أجل أن يبيعهم بضاعتهم التي بأيديهم بل لينقل إليهم مشاهد وصورا عن الإنسان العربي في المشرق². وقد لمح المؤلف إلى نزعته الأندلسية حيث قال : " ليعلم الناظر في كتابنا هذا أن لمغربنا على قاصبته وبلدنا على انقطاعه حضا من المنظوم والمنثور³ " إذ توحى هذه العبارة إلى ذلك التنافس الذي ساد بين المشرق والمغرب حول التأليف والتصنيف.

وممن صرحوا برغبتهم في تحويا المركزية عن المشرق ابن بسام الشنتريني في كتابه الموسوم " الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة " إذ تعد مقدمته بشأن بيان ثورته على نسق

1 - الموسوعة العربية العالمية

2 - عابد. حسن حنفي / د. محمد عابد الجابري: حوار المشرق و المغرب المؤسسة العربية للدراسات ونشر: ص

3 - ابن عبد ربه : العقد الفريد : ص 06

التقليد السائد في عصره والذي " صار نسقا قاصرا مترهلا عاجزا عن الفعل والفاعلية"¹، وقد ظهرت نزعته ابتداء من عنوان الكتاب الذي سمي بـ " الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة " فعبارة "أهل الجزيرة " دلالة على الانتماء إلى هذه الربوع والرغبة في تحويل اتجاه أهل المشرق النظر إليها ولكن نظر أهلها الذين أصبح التقليد سمة عندهم؛ كما يدل أيضا على مل ذهب إليه من اقتصار مادة المؤلف على أدباء الأندلس، ثم تحدث عن مضمون هذا الكتاب فقال " وقد أودعت هذا الديوان بكتاب "الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة" من عجائب علمهم وغرائب نثرهم ونظمهم، ما هو أحلى من مناجاة الحبة ، بين التمتع والرقبة ، وأشهى من معاطاة العقار على المثالب والأزيار"². وقد صرح من خلال مقدمته عن تبنيه لمنهج التصنيف المتمثل في اقتصار مادة كتابه على آداب أهل الأندلس معلنا بذلك "عن توجه أدبي جديد" وقد برر ذلك بالملل من تكرار النماذج المشرقية حيث قال : " إذ كل مرد ثقيل وكل متكرر مملول، وقد مجت الأسماع : " يا دار مية بالعلياء فالسند " وملت الطباع لخولة أطلال ببرقة تهمد " ومحت " قفا نبك" في يد المتعلمين..."³.

" تصاغ هذه البيانات الأدبية في شكل ثوري وحماسي بلغة كثيفة معبرة منتقاة انتقاء بارعا، متلبسة بالمجاز والغموض "⁴. ومن ذلك ما جاء في مقدمة ابن بسام الشنتريني في ثورته ضد ظاهرة التقليد السائدة في عصره حيث قال : " إلا أن أهل هذا الأفق أبوا إلا متابعة أهل الشرق، يرجعون إلى أخبارهم المعتادة رجوع الحديث إلى قتادة؛ حتى لو نعق بتلك للآفاق غراب أو طن بأقصى الشام والعراق ذباب، لجثوا على هذا صنا وتلو ذلك كتابا محكما "⁵.

حيث عبر عن الوضع السائد وطغيان نسق تقليد أهل الأندلس لأهل المشرق تقليدا أعمى دون مقاييس، فانتقى لذلك بلغة منتقاة معبرة عن استيائه من ذلك مثل قوله : "يرجعون إلى أخبارهم المعتادة رجوع الحديث إلى قتادة" إشارة منه إلى التقليد الأعمى للمشاركة وإن لم يكن أدبهم مستحقا لذلك، وكذلك قوله " ولو نعق بتلك الآفاق غراب، طن ... ذباب...

1 - عبد الله العشي : زحام الخطابات : ص 13

2 - الشنتريني: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة : ص 14

3 - نفسه : ص 14

4 - عبد الله العشي : زحام الخطابات : ص 13

5 - الشنتريني : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة : ص 11

لجثوا،... " تلوا ذلك كتابا محكما". وقد ثار على هذا الوضع وعبر عن رفضه بقوله :
"فغاظني منهم ذلك وأنفت مما هنالك وأخذت على نفسي بجمع ما وجدت من حسنات
دهري، وتتبع محاسن أهل بلدي وعصري غيرة لهذا الفن في هذا الأفق الغريب أن تعود
بدوره أهلة، وتصبح بحاره ثمادا مضمحلة، مع كثرة أدبائه ووفور علمائه"¹.

وقد جاء بيانه بالفعل بلغة منتقاة متلبسة بالمجاز والغموض مثل الاستعارة في قوله:
"تعود بدوره أهلة " حيث عبر عن حرصه في التعريف بعلماء وأدباء الأندلس خوفا من
أقول نجمهم، فلغته هنا تحاول " أن ترقى إلى لغة المقدس السحري والعجيب، بغية التأثير
المضاعف في المتلقي. تأتي هكذا لهز قناعات المتلقي ومراوغته، وتغيير ذوقه وكسب
حساسيته، لغة قائمة على التشظي والتشتيت وزرع الفوضى في النظام وخلخلة الأسس التي
يقوم عليها الواقع الأدبي، والوعي الأدبي"²، فابن بسام هنا يريد أن يغير النسق السائد في
عصره بالأندلس فعبر عن رغبته هذه " بلغة قائمة على الجمل القصيرة الموحية والمعبرة
والمستفزة، لغة سريعة تسابق الوقت وتسعى إلى تجاوزه، لغة مدهشة تصدم أفق انتظار
المتلقي"³ معلنا بذلك رغبته في أن يؤمن القارئ بما يدعو إليه إذ يوجهه لتبني رأيه. "ولذلك
يثير البيان الرأي الآخر بقوة، فيدخل معه في صراع وعراك مصيري، فالبيان والرأي
الآخر لا يعيشان معا ولا يتعايشان، كل منهما يدفع بكل ما يملك إلى ساحة العراك، مما
يثير الواقع ويحرك ثوابته، ويعيد صياغة مكوناته. هكذا يهز البيان الأدبي جسد الواقع
الأدبي فيملؤه بالحياة والحيوية والحركة من خلال ذلك الصراع الذي ينشأ بين القديم الذي
يريد الاستمرار والمحافظة على الأنساق السائدة بكل جزئياته. فالبيان الأدبي دليل على
تغيرات متعددة؛ في الذات المؤلفة والذائقة الأدبية المتغيرة بتغير الأنساق الثقافية، في الواقع
الأدبي ومكوناته ومنتوجاته، في الحركة التاريخية وصيرورتها؛ البيان الأدبي دليل على
الحد الأقصى من النضج بلغة التاريخ وأن له أن يوجه حركته في اتجاه آخر"⁴.

لقد كان الصراع حول المركزية بين المشرق والمغرب صراعا فكريا أثرى مكتبة
التراث العربي بالعديد من العناوين التي تركت بصمتها على مر العصور، ولكن هذا

1 - المرجع السابق : ص 12

2 - نفسه : ص 13

3 - نفسه : ص 14

4 - نفسه : ص 14

الصراع أو الشد والجذب عرف حدة في العصر الحديث إلى درجة التعصب لجانب أو لآخر حتى أن البعض " ... غالى فيها وجعل منها قطيعة " ¹. فأصبحت القضية بين مشرق متهم بادعاء الريادة ومغرب يشعر بأنه طرفا مهما وقد ربط الدكتور حسن حنفي جذور هذه القضية بمخلفات الاستعمار حيث قال : " ... ولا أقول بين مشرق ومغرب نظرا لأن هذه القسمة نشأت في حضن الاستعمار، تقطيعا للعالم الإسلامي إلى إسلامي وعربي أولا ثم تقسيما للعالم العربي إلى مشرق ومغرب ثانيا وجاء جيلنا وغالى البعض منا في القطيعة، ودعا إلى خصوصية مغربية، عقلانية علمية طبيعية، في مقابل مشرق صوفي إشراقي ديني، مما يجعل المغرب أقرب إلى الغرب والمشرق إلى الشرق، وبالتالي تضيع وحدة العالم العربي واستقلاله باعتباره مركز الثقل في العالم الإسلامي، ويضيع استقلال المنطقة بعد أن يذهب نصفها إلى الغرب ونصفها إلى الشرق. " ² وهو محق فيما ذهب إليه.

III - هيمنة النسق المنطقي عل التصنيف والتأليف :

لقد تأثرت البلاغة العربية بالتراث الأجنبي في عصر التدوين حيث " أشار بعض الباحثين إلى وجود عناصر غير عربية في موروثنا البلاغي والنقدي استخرجوا بعضها، ولفتوا انتباه غيرهم إلى تعميق هذا الجانب من البحث لتتم لنا صورة النظرية الأدبية عند العرب بالوقوف على مجمل روافدها. ومن ثم أصبحت هذه المسألة مبحثا قارا لا يكاد يخلو منه مؤلف متعلق بقضايا الأدب عامة، وقضايا البلاغة، بصفة خاصة. " ³ ومن بين أهم هذه المؤثرات نجد الفلسفة اليونانية بمختلف فروعها ويعتبر " قدامة بن جعفر في مؤلفه " نقد الشعر " "أول تجسيم للمؤثرات الأجنبية في النقد العربي" ⁴.

يعتبر أهم رافد للنظريات اليونانية كتابي " فن الشعر " و "الخطابة " من طرف الفلاسفة العرب أمثال الفارابي وابن سينا، وقد ظهر هذين الكتابين " في فترة شهدت بواكر التأليف

¹ - حوار المشرق والمغرب (عابد الجابري) : ص 19

² - عابد الجابري : حوار المشرق والمغرب : ص 07

³ - التفكير البلاغي : ص 60 ، 61

⁴ - نفسه : ص 71

المستقل في فن البلاغة مع كتاب " البديع " لعبد الله بن المعتز¹ حيث تأثر بالتقسيمات المنطقية لليونانيين من أجناس وأنواع وغيرها.

وقد انسحب هذا الاهتمام بفلسفة اليونان إلى المغرب والأندلس فاشتركت بذلك مع المدرسة المشرقية في " الأخذ بالمنطق الأرسطي، وخصوصا ما يتعلق منه بنظرية التحديد والقياس وأنواعه وعلائق القضايا، وقد رأى المتمنطقون جميعهم أن القياس المنطقي يؤدي إلى المعرفة اليقينية"².

ومن بين الذين هيمن النسق المنطقي على مؤلفاتهم واعتمدوا التصنيف المنطقي نجد أبو محمد القاسم السجلماسي في كتابه " المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع " والذي "يمثل وجهاً فريداً في الدراسات النقدية البلاغية العربية السابقة في الزمن، فهو كتاب قيم نادر، يقف بحق وجدارة، بمضمونه وأسلوبه ومنهجه العلمي، إلى جانب قمم المصادر العربية في باب، أبدعه علم من علماء الجناح الغربي العظيم من العالم العربي الإسلامي. وقد شارك هذا الجناح بأعلام واتجاهات في العلم والأدب، أظهرت ابتكارات وإضافات ومعالماً أخرى علمية وأدبية جديدة في تاريخ الثقافة العربية"³.

يظهر مصطلحات المنطق في هذا الكتاب ابتداء من العنوان الذي يدل على هدف صاحبه من التأليف وهو تجنيس أساليب البديع، فلفظة "تجنيس" توحى إلى التصنيف المنطقي وفق أجناس وأنواع ... وهو ما ورد في مقدمته من خلال حديثه عن " إحصاء قوانين الصناعة الموضوعة لعلم البيان وأساليب البديع وتجنيسها ... وترتيب أجزاء الصناعة ... على جهة الجنس والنوع ..."⁴ إذ أن هذه المصطلحات : تجنيس، الجنس، النوع، عبارة عن مصطلحات منطقية تستعمل في تصنيف الأجناس والأنواع وهذا دليل على تأثر السجلماسي " بالروح الفلسفية المنطقية"⁵ التي تناول بها قضايا هذا الكتاب.

1 - المرجع السابق : ص 65

2 - التلقي والتأويل : ص 19

3 - د/ عزة حسن : من معالم التحول والتقدم في المغرب: إحياء ذخائر التراث الأدبي المغربي ، عن شبكة الانترنت بتصرف

4 - أبو محمد القاسم الأنصاري السجلماسي: المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع،تح: علال الغازي،مكتبة المعارف، ط1، الرباط 1980: ص180

5 - صلاح رزق : أدبية النص : ص 82

وقد صرح السجلماسي من خلال مقدمة مؤلفه بهدفه من تأليف الكتاب وهو " الوقوف على لطائف معاني القرآن ومعرفة وجوه إعجازه، ومنها تنقية البلاغة العربية من فساد التقسيم وتداخل الأقسام وتراكبها بترتيبها على المنهج الصناعي وتحليلها على معتاد نهج التحليل في النظريات".¹

ومن أجل ذلك عمد إلى " إحصاء قوانين الصناعة الموضوعة لعلم البيان وأساليب البديع وتجنيسها في التصنيف وترتيب أجزاء الصناعة في التأليف على جهة الجنس والنوع وتمهيد الأصل من ذلك للفرع، وتحرير تلك القوانين الكلية، وتجريدها من المواد الجزئية".² ومن أجل تحقيق هذا الهدف عمد المؤلف إلى " الكتب البلاغية السابقة عليه واستخرج منها أساليب وصنفها بحسب الصناعة المنطقية؛ أي على أساس ترابط وتناسب وتراتب".³ وهذا ما يثبته المؤلف من خلال وصف متن الكتاب في المقدمة قائلا بأن " هذه الصناعة الملقبة بعلم البيان وصنعة البلاغة والبديع مشتملة على عشرة أجناس عالية وهي : الإيجاز والتخييل والإشارة والمبالغة والرصف والمظاهرة والتوضيح والاتساع والانشاء والتكرير".⁴

وهو تقسيم لم يجد عنه في كتابه حيث جاءت مباحثه متفرعة عن هذه الأجناس العالية، تفرعا تنازليا فقد جاء المتن في محورين من خلال الجمع بين التنظير والتطبيق: تنظير يخضع لهذا التقسيم المنطقي المستمد من التفكير المنطقي اليوناني، ثم التطبيق على مادة مستمدة من التراث الأدبي العربي، وقد اعتمد في متنه منهجا علميا دقيقا اتسم بالموضوعية و تحديد المصطلح؛ وقد حدد مباحث كتابه انطلاقا من المقدمة حيث حددها بعشرة أجناس عالية كما ذكرنا وهو تقسيم يطغى عليه التقسيم والتنظير الفلسفي والتراث الشعري واللغوي وقد اعتمدها كقاعدة يبني عليها متنه بحيث يفرع عنها مصطلحات محددة ومتكاملة ومتجانسة"⁵ على النحو الآتي:

❖ **الإيجاز:** يتفرع إلى المساواة والمفاضلة، ثم الاختزال بين الاصطلام والحذف، والاصطلام بين الاكتفاء بالتقابل و الحذف المتقابل؛ و الحذف مقسم إلى الإطلاق

1 - التلقي والتأويل : ص 61

2 - السجلماسي : المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع : ص 180

3 - التلقي والتأويل : ص 61

4 - المنزع البديع : ص 108

5 - ينظر : السجلماسي : المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع : ص 53 (مقدمة المحقق)

والإطلاق بين الاخترام و الإهمال، أما الانتهاك فبين ما يقع في تركيب الإضافة وما يقع في تركيب الصفة و ما يقع في تركيب الإضافة بين حذف المضاف إليه وإبقاء المضاف إليه؛ أما ما يقع في تركيب الصفة فبين حذف الموصوف وإبقاء الصفة وحذف الصفة و إبقاء الموصوف.

❖ **التخييل :** وهو مقابل المجاز يتفرع إلى المجاز والمماثلة و الاستعارة والتشبيه، وقد تفرع التشبيه إلى بسيط و مركب، وقد تفرع البسيط بدوره إلى الجري على المجرى الطبيعي والجري على غير المجرى الطبيعي .

❖ **الإشارة:** تتفرع بين الاقتضاب والإيهام؛ الاقتضاب يتفرع إلى التتبع والكناية والتلويح؛ أما الإيهام فيتفرع إلى التنوية والتعمية؛ فالتنوية يتفرع إلى التفخيم والإيماء أما التعمية فتتفرع إلى اللحن والرمز والتورية والحذف.

❖ **المبالغة:** تتفرع إلى العدل والمبالغة؛ المبالغة تتفرع إلى الإغراق والتداخل والاستظهار والإطناب والسلب والإيجاب؛ والإغراق يتفرع إلى الغلو، والتجاهل التجريد، الاستثناء؛ أما التجاهل يتفرع إلى التشكيك والتجاهل والتجريد يتفرع إلى التجريد والبسيط والتجريد المركب.

ومن هنا يتضح " مدى تمكن السجلماسي من الكتب المنطقية لأرسطو في متونها، ومما دار حولها من شروح وتلخيصات وتفسيرات في العالم العربي والإسلامي، فالمؤلف يحيل بكيفية مباشرة على كتاب المقولات والشعر والجدل، ويذكر الفارابي وابن سينا ... على أن مؤلف أرسطو الذي كان حاضرا أكثر من غيره هو كتاب المقولات، فقد تبني خلفياته الميتافيزيقية والأنطولوجية".¹

في النهاية يمكن القول بأن السجلماسي استفاد من آراء الفلاسفة المسلمين وأعلامهم كما استفاد من آراء الفلاسفة اليونانيين مما جعله يمتلك منطقاً مكنه من تناول موضوعه من خلال مصطلحات وقياسات منطقية صارمة وقد أضفى عليها مسحة أدبية وفق منهج علمي دقيق يخضع للتصميم الجيد، كل ذلك في انسجام منهجي يجمع بين التفكير المنطقي والثقافة النقدية والبلاغية.

الفصل الثاني

الفصل الثاني : بيانات الحجاج

I - مقصد الدفاع عن القرآن الكريم

1 - مقدمة تأويل مشكل القرآن

2 - مقدمة دلائل الإعجاز

3 - الخطاب الإقناعي بين مقدمتي تأويل مشكل القرآن و دلائل الإعجاز

II - قضايا نقد الشعر

1 - مقدمة الشعر والشعراء

2 - مقدمة عيار الشعر

III - تبرير التأليف والتصنيف

1 - تبرير التأليف

2 - تبرير التصنيف

يعتبر الحجاج " أحد أهم أركان التداولية إلى جانب نظرية الأعمال اللغوية " ¹، كما تشير موسوعة لالاند الفلسفية إلى أن الحجاج " سلسلة من الحجج تنتهي بشكل كلي إلى تأكيد نفس النتيجة، وربما نص هنا على كونه طريقة تنظيمية في عرض الحجج وبنائها وتوجيهها نحو قصد معين يكون عادة الإقناع والتأثير، فتكون الحجة في سياق هذا العرض بمثابة الدليل على الصحة أو الدحض" ² بينما تطلق لفظة حجاج ومحااجة عند بريلمان وتيتيكاه على العلم و موضوعه، ومؤداها درس تقنيات الخطاب التي تؤدي بالذهن إلى التسليم بما يعرض عليه من أطروحات، أو أن تزيد في درجة التسليم والغاية من كل حجاج في نظريهما أن يجعل العقول تدعن لما يطرح عليها أو يزيد في درجة ذلك الإذعان فأنجع الحجاج ما وفق في جعل حدة الإذعان تقوى درجتها لدى السامعين بشكل يبعثهم على العمل المطلوب (إنجازة أو الإمساك عنه). أو هو ما وفق على الأقل في جعل السامعين مهئين لذلك العمل في اللحظة المناسبة أما ديكر و فيفرق بين معنيين للفظ الحجاج المعنى العادي والمعنى الفني وما يخص التداولية هو الحجاج بمعناه الفني والذي يدل على صنف مخصوص من العلاقات المودعة في الخطاب والمدرجة في اللسان ضمن المحتويات الدلالية، والخاصية الأساسية للعلاقة الحجاجية أن تكون درجية (scalaire) .

سأحاول من خلال هذا الفصل البحث عن ملامح الحجاج في نماذج من مقدمات المصادر التراثية وذلك بإبراز استراتيجياتهم في تشكيل خطاباتهم والبحث عن سمات للحجاج وكذا رصد طرقهم في عملية التأثير في الآخر باعتبار أن الحجاج وسيلة المتكلم في جعل المتلقي يتقبل آراءه واتجاهاته وانتقاداته ثم البحث عن ملامح للمرسل إليه الذي يوجه إليه هذا الخطاب؛ ومن أجل ذلك ارتأيت أن أبدأ من مقدمات المؤلفات الخاصة بإعجاز القرآن الكريم معتمدة على مؤلفين هما تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ودلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني وبعدها المؤلفات الخاصة بتصنيف الشعراء واعتماد مقدمتي طبقة فحول الشعراء لابن سلام الجمحي والشعر والشعراء لابن قتيبة وأخيرا مصنفات المغاربة.

1 - عبد الله صولة : الحجاج : أطره و منطلقاته من خلال مصنف في الحجاج : الخطابة الجديدة ؛التداولية ، أهم نظرياتالحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم: ص 299

2 - فليب بلانشيه : التداولية من أوستن إلى غوفمان : تر : صابر الحباشة :دار الحوار للنشر و التوزيع ، ط1، 2007 : ص 45

I - مقصد الدفاع عن القرآن الكريم :

انطلق أصحاب مؤلفات إعجاز القرآن الكريم من فكرة الدفاع عن القرآن الكريم والرد على الطاعنين فيه الذين يتهمونه بالقصور ومن هنا يتحدد المرسل إليه والمتمثل في هؤلاء الطاعنين الذين يحاول هؤلاء المؤلفون إقناعهم بشتى الطرق ودحض ادعاءاتهم حول قصور القرآن الكريم. وقد نشأت هذه القضية " من اتساع الدولة الإسلامية، بسبب المد القوي لحركة الفتوح شرقا وغربا أدى - ضمن ما أدى إليه - إلى نشاط الحركة الفكرية لعلماء المسلمين، وامتزاج الثقافات حيناً وتضارب الأفكار والمفاهيم حيناً آخر في البلاد المفتوحة، الأمر الذي أدى إلى أن تأخذ تلك الحركة العلمية مسارات متعددة، ومن ثم نشأت الفرق الكلامية والمذاهب الفكرية، المتعددة، وثارَت فيما بينها مسائل الخلاف وقضايا البحث التي تتفاوت في درسها المواقف وتختلف الاتجاهات، ... وكان هذا جوا ملائماً لادعاء المطاعن واستثارة حملات التشكيك حول النص القرآني... وكانت الشكوك والمطاعن المثارة داعياً كافياً لاستثارة همم المسلمين للدرس والتمحيص، وإزالة ما يمكن أن يعلق بالأذهان من كدر ذلك الزيف"¹.

فبرزت بذلك " الحاجة إلى ضرورة تأسيس قضية الإعجاز تلك على أسس عقلية وتحليل وتعليل يمكن أن يقوى أمام حجج الخصوم، وقد بدأ عددهم يكثر، نظراً لما أراده الإسلام لنفسه من انتشار أفقي وعمودي في نفس الوقت. ونشير هنا إلى أنه لا يهم وجود هؤلاء الخصوم وجوداً فعلياً بقدر ما يهمنا وعي المسلمين بذلك وتقبله كإفراز من إفرازات تطور حضاراتهم لا يستطيعون له دفعا.... فكانت، إذن، قضية الإعجاز في صدارة مسائل الاحتجاج للنوبة بمفعول هذه الضرورات التي ذكرنا"²

1 - مقدمة تأويل مشكل القرآن :

نجد أن ابن قتيبة يعبر عن المرسل إليه بقوله: " وقد اعترض كتاب الله بالطعن ملحدون ولغوا فيه وهجروا، واتبعوا ۞ ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ۞ بأفهام كليلية، وأبصار علييلة، ونظر مدخول، فحرفوا الكلام عن مواضعه، وعدلوه عن سبله ثم قضوا

1 - صلاح رزق : أدبية النص : ص 13، 14 بتصرف

2 - حمادي صمود : التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره في القرن السادس : ص 35

عليه بالتناقض، والاستحالة، واللحن وفساد النظم، والاختلاف. وأدلووا في ذلك بعلل ربما أمالت الضعيف الغمر، والحدث الغر، واعترضت بالشبه في القلوب، وقدحت بالشكوك في الصدور. ولو كان ما نحلوا إليه على تقريرهم وتأولهم لسبق إلى الطعن به من لم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يحتج عليه بالقرآن الكريم ويجعله العلم لنبوته والدليل على صدقه ويتحداه في موطن بعد موطن، على أن يأتي بسورة من مثله، وهم الفصحاء البلغاء، والخطباء والشعراء، والمخصوصون من بين جميع الأنام بالألسنة الحداد، واللدد في الخصام مع اللب والنهي وأصالة الرأي، وقد وصفهم الله بذلك في غير موضع من الكتاب و كانوا مرة يقولون : هو سحر، ومرة يقولون : هو قول الكهنة، ومرة : أساطير الأولين ولم يحك الله تعالى عنهم ولا بلغنا في شيء من الروايات أنهم جديوه من الجهة التي جذبته منها الطاعنون. فأحببت أن أنضح عن كتاب الله وأرمي من ورائه بالحجج النيرة والبراهين البينة وأكشف للناس ما يلبسون. فألفت هذا الكتاب جامعا لتأويل مشكل القرآن مستنبطا ذلك من التفسير بزيادة في الشرح والإيضاح وحاملا ما لم أعلم فيه مقالا لإمام مطلع على لغات العرب لأرى به المعاند موضع المجاز وطريق الإمكان من غير أن أحكم فيه برأي أو أقضي عليه بتأويل، ولم يجز لي أن أنص بالإسناد إلى من له أصل التفسير إذ كنت لم أقتصر على وحي القوم حتى كشفت عنه وعلى إيمانهم حتى أوضحتهم وزدت في الألفاظ ونقصت وقدمت وأخرت وضربت لبعض ذلك الأمثال والأشكال حتى يستوي في فهمه السامعون وأسأل الله التجاوز عن الزلة بحسن النية فيما دلت عليه وأجريت إليه التوفيق والصواب وحسن الثواب".¹

وراح يحشد حججا لدحض ادعاءاتهم باعتبار أن المرسل إليه هنا كان "عالما مخالفا وجاحدا لوجهة نظر الخطيب [المؤلف] وفي هذه الحالة لا بد من المحاججة، والبرهنة المحاججة"²، ولهذا " اقتضى الأمر أن يعتمد على الحجج والبراهين العقلية والنقلية بحسب نوع الثقافة والإيديولوجية التي تحكم المخاطب"³ وهذا ما يتجلى من خلال مقدمة تأويل مشكل القرآن حيث اعتمد استراتيجية في الخطاب وتتمثل في البداية بالحديث عن فضل القرآن

1 - ابن قتيبة أبو محمد عبد الله بن مسلم: تأويل مشكل القرآن : ص 22 - 23

2 - محمد العمري: في بلاغة الخطاب الإقناعي، إفريقيا الشرق، ط 2 المغرب 2002 : ص : 24

3 - النص و الخطاب بين البلاغتين العربية و الحديثة: " نقل عن مقال في شبكة الانترنت: ص 40

4 - سورة الكهف : الآية 1

5 - سورة فصلت : الآية 42

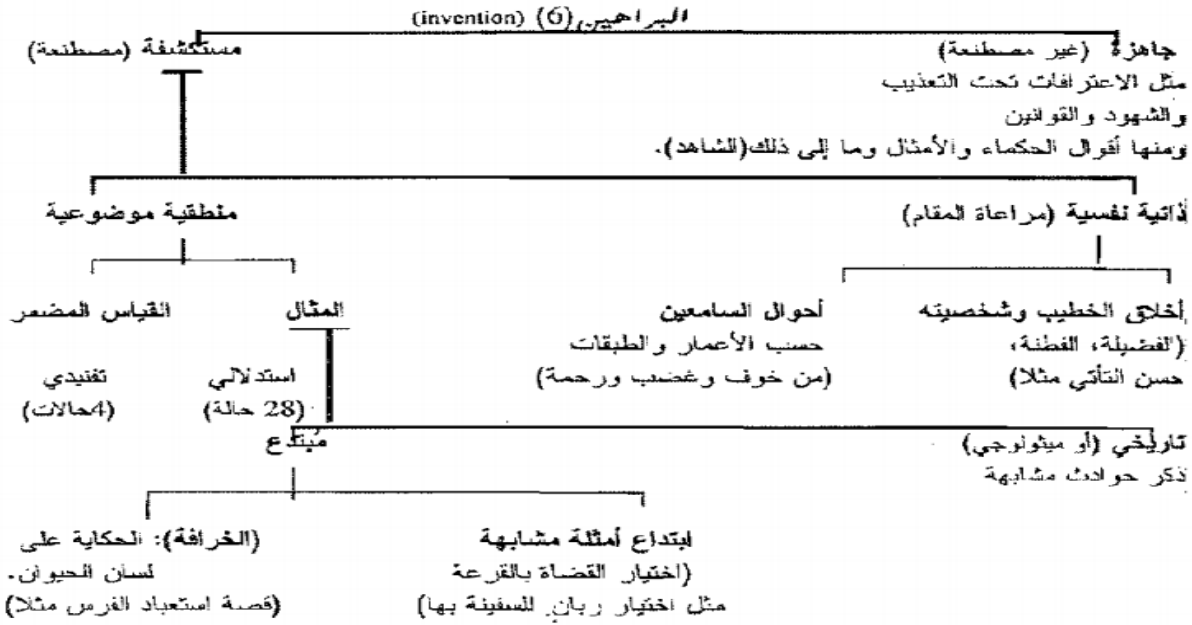
6 - ابن قتيبة : تأويل مشكل القرآن: ص 3 من المقدمة

الكريم وتعداد عجائبه التي لا تنتهي محاولا إثبات إعجازه معتمدا حجة وصفية حيث وصف خصائص القرآن الكريم . فقال : " الحمد لله الذي نهج لنا سبل الرشاد، وهدانا بنور الكتاب، ﴿ و لم يجعل له عوجا ﴾⁴ بل نزله قيما مفصلا بينا ﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾⁵ وشرفه، وكرمه، ورفعته وعظمه، وسماه روحا ورحمة، شفاء وهدى، ونورا. وقطع منه بمعجز التأليف أطماع الكائدين، وأبانه بعجيب النظم عن حيل المتكلفين، وجعله متلوا لا يمل على طول التلاوة، ومسموعا لا تمجه الآذان، وغضا لا يخلق على كثرة الرد، وعجيبا لا تنقضي عجائبه، ومفيدا لا تنقطع فوائده، ونسخ به سالف الكتب"⁶. فهو هنا يبدأ الكلام بخلفية دينية باعتباره " إماما من أئمة أهل السنة " .

لقد اعتمد ابن قتيبة في مقدمته حججا مستمدة من القرآن الكريم والتراث الشعري واعتمد تأويل هذه الشواهد القرآنية رغم أنه لم يصرح بذلك إلا أنه منهج يفرض نفسه حيث اعتمده من أجل تقوية الحجة ومضاعفتها باعتباره يتهم الطاعنين بعدم فهم آيات القرآن فنجد هنا أن منهج التأويل " يفرض نفسه كمنهج منذ البداية أثناء تحليل المؤلف للآيات التي فسرهما في المقدمة حيث تمثل صنفا من التعابير فهمها مشكلة لأنها خرجت عن مألوف الاستعمال فهي لذلك قد تؤدي إلى اللبس والغموض وتكون حجة للطاعنين والمخادعين"¹

من بين الحجج التي وظفها ابن قتيبة في مقدمته نجد حججا أو براهين غير مصطنعة كما تحدث عنها محمد العمري حينما تناول موضوع الحجج والبراهين الخطابية عند أرسطو إذ قسم البراهين إلى جاهزة غير مصطنعة ومستكشفة مصطنعة وقد وضحا بالخطاطة التالية:

"



ومن بين البراهين التي وظفها ابن قتيبة تلك المستمدة من القرآن الكريم استخدمها لتبرير وإثبات فضله وإعجاز تأليفه وعجيب نظمه تتمثل في بعض آيات القرآن الكريم ومنها قوله تعالى: " **﴿لَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾**"¹ حيث دلت هذه الآية على سلامة النص الديني من الاعوجاج ثم وظف قوله تعالى " **﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾**"².

وتعد هذه الآيات حججا استشهادية وحجة الاستشهاد: غايتها توضيح القاعدة، وتكثيف حضور الأفكار في الذهن، وربما كان الاستشهاد أداة لتحويل القاعدة من طبيعة مجردة إلى أخرى محسوسة، ولعل القرآن الكريم فيما يقدم لنا من أمثلة حجاجية أهم مصدر لهذه الأشكال الحجاجية، على أن العناية بالاستشهاد القائم على التمثيل مقيد بجملة من القيود لعل أهمها عدم إطنابه"³.

1 - الآية 1 من سورة الكهف (تأويل مشكل القرآن : ص 3)

2- الآية 42 من سورة فصلت (تأويل مشكل القرآن : ص 3)

3 - صابر الحباشة: التداولية و الحجاج ، صفحات للدراسات و النشر، ط1 ، دمشق 2008 ، ص : 48 - 49

ولم يكتف هنا بهذه الآية بل اعتمد مجموعة من الألفاظ بصيغة محددة ليقوي حجته وهي صيغة المبالغة على وزن فعّل فقال: "شرفه وكرمه وعظمه"¹ مما زاد في القوة التأثيرية للغة. كما اعتمد أيضا تعداد بعض أسماء القرآن الكريم التي وردت في بعض سوره فقال: "وسماه روحا ورحمة وشفاء وهدى ونورا"² وذلك قصد الإقناع أيضا.

وقد استغل المؤلف هنا استراتيجية التلميح عن طريق الاستعارات فجعل القرآن روحا وشفاء واستراتيجية التلميح هي " أن يلمح المرسل بالقصد عبر مفهوم الخطاب دلالاته للتعبير عن القصد "³، إذ عبر عن ذلك بآلية الاستعارة، وهي أن تذكر " أحد طرفي التشبيه وتريد به الطرف الآخر، مدعيا دخول المشبه في جنس المشبه به، دالا على ذلك بإثباتك للمشبه ما يخص المشبه به وذلك لأن المستعار منه يجمع أكثر من صفة، وفي هذا إيجاز شديد وتجسيد واضح لقصده"⁴، حيث استعار ابن قتيبة للقرآن الكريم القدرة على الشفاء والهدي.... الخ من الله سبحانه وتعالى إذ أن هذه من صفات الله عز وجل. أي أن للتلميح نفسه " أكثر من سمة من سمات المستعار منه الدلالية. وهنا، فالمرسل يعبر عن المرجع في هذه الخصائص المحددة دون غيرها "⁵، إذ أن هذه الصفات تدل على أن القرآن هو كلام الله المنزل وقد يقتصر على إحدى السمات دون التجاوز إلى غيرها من السمات. كما وقد يستعمل المرسل الاستعارة وهو يريد التلميح إلى سمة معينة، لا تتبادر إلى الذهن مباشرة، إذ يفهم المرسل إليه صفة أخرى، هي الصفة التي اشتهر بها المستعار منه "⁶.

وقد وصف القرآن بالإيجاز حيث قال: "وجمع الكثير من معانيه في القليل من لفظه"⁷ وقد برر قوله باعتماد شاهد من الحديث النبوي وهو قول الرسول صلى الله عليه وسلم: "أوتيت جوامع الكلم"⁸ ومن أجل تدعيم الحجة الأولى أتى بحجة ثانية تتمثل في تحليل آية قرآنية. باعتماد منهج التأويل كونه "يتصل بأشكال التعبير الظاهرة ويردها إلى مستوى أصلي لينكشف المعنى بالدلالة الوضعية وبيان أن الخروج عن مألوف العبارة لا يبذل من

1 - ابن قتيبة : تأويل مشكل القرآن : ص 3 ، 1

2 - نفسه : ص 3

3 - عبد الهادي بن ظافر الشهري : استراتيجيات الخطاب : ص 368

4 - نفسه : ص 410

5 - نفسه : ص 410

6 - نفسه : ص 410

7 - ابن قتيبة : تأويل مشكل القرآن : ص 4

8 - نفسه : ص 4

ذات المعنى الأصلي ومن هنا برزت ضرورة تزامن وصف الأشكال الأصلية والأشكال المعدولة والبحث، في كل مرة، عن المصطلح الملائم لنوع العدول أو الخروج وتعليقه بمعنى من المعاني قطعاً لدابر العبث اللغوي خاصة والأمر يتعلق بالنص القرآني. فالتأويل من هذا المنظور، استخراج مجهول من معلوم يستوجب الانطلاق من مقدمات تصون التأويل عن الزلل وتقع بسلامة النتيجة واستقامة الاستنتاج¹؛ وقد تمثلت هذه الآية في قوله تعالى: "خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين"² ولكي يبين ظاهرة الإيجاز في القرآن قدم المؤلف مجموع المعاني التي يمكن أن تتفرع عن هذه الآية فقال مخاطباً الطاعنين فيه والجاحدين له: "فإن شئت أن تعرف ذلك فتدبر قوله تعالى: "خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين" كيف جمع له بهذا الكلام كل خلق عظيم؛ لأن في "أخذ العفو" صلة للقاطعين، وصفح عن الظالمين وإعطاء المانعين. وفي الأمر بالعرف: تقوى الله، وصلة الأرحام وصون اللسان عن الكذب، وغض الطرف عن الحرمات. وإنما سمي هذا "عرفاً" و"معروفاً"؛ لأن كل نفس تعرفه، وكل قلب يطمئن إليه. وفي "الإعراض عن الجاهلين": الصبر، الحلم وتنزيه النفس عن ممارسة السفه ومنازعة اللجوج"³

إذ يمكن الاستنتاج هنا أن ابن قتيبة عمد إلى صياغة حجة شبيهة بالمنطق وقد دعا المرسل إليه إلى التدبر دون ممارسة السلطة عليه فقال: "إن شئت فتدبر" فهو هنا يدعوه بلين ثم أنه يبرر حجته فيقول "إن"، "لأن" و"إنما" وهو بصدد تعداد معاني الآية وهي بعض الروابط الحجاجية ويقصد بها الربط أو الوصل، وهي الوحدات اللغوية أو المورفيمات التي تقيم علاقة بين جملتين، سواء تعلق الأمر بالظروف (مع، ذلك رغم...) أو العطف (الواو، الفاء) أو الاتباع بالصلة (لأن، بما أن، غير أن) ويعتبر استعمال هذه الروابط في الخطاب من الأشياء المهمة كونها تؤدي دوراً من حيث أنها تضيف على النص الاتساق وربط أجزائه بالمعنى⁴.

1 - محمد العمري: التفكير البلاغي: ص 328، 329

2 - الآية 199 من سورة الأعراف

3 - ابن قتيبة: تأويل مشكل القرآن: ص 4، 5

4 - أ. إيدر إبراهيم: الآليات الحجاجية في الأدب الكبير لابن المقفع [دراسة تداولية] منشورات مخبر الممارسات اللغوية في الجزائر، تيزي وزو 2011: ص 149

ومن ثمة يرصد آية أخرى كحجة عن ظاهرة الإيجاز فقال: "وفي قوله تعالى إذ ذكر الأرض فقال: "أخرج ماءها و مرعاها" ¹ كيف دل بشيئين على جميع ما أخرجه من الأرض قوتا ومتاعا للأنام، من العشب والحب والثمر والحطب والعصف واللباس والنار والملح، لأن النار من العيدان والملح من الماء. وينبئك أنه أراد ذلك قوله: "متاعا لكم و لأنعامكم" ² 3

وقد ساق المؤلف هنا آية وذكر كيف أن الله قصد معاني متعددة يفهمها المتلقي من خلال لفظين وقد دعمها بآية أخرى . وبعدها جاء بحجة أخرى تتمثل في قوله: " وفكر في قوله تعالى حين ذكر جنات الأرض فقال: " يسقي بماء واحد، ونفضل بعضها على بعض في الأكل" ⁴ كيف دل على نفسه ولطفه، ووحدايته، وهدى للحجة على من ضل عنه؛ لأنه لو كان ظهور الثمرة بالماء والتربة ، لوجب في القياس ألا تختلف الطعوم، ولا يقع التفاضل في الجنس الواحد، إذا نبت في مغرس واحد، وسقي بماء واحد، ولكنه صنع اللطيف الخبير" ⁵.

نلاحظ هنا أن المؤلف ساق الدليل في تفسيره لهذه الآية على شكل قياس واستنتاج منطقي لا يترك الشك في نفس الخصم فهي بمثابة دليل قاطع على قدرة الله عز وجل وقدرته بضرب الأمثال في كتابه وقد اعتمد نفس الاستراتيجية في مخاطبة المرسل إليه فدعاه إلى التفكير بقوله " فكر" وبعد عرض الآية وظف الاستفهام " كيف دل على نفسه " ثم وظف القياس بتوظيف الروابط المنطقية لأنه لو كان ... لوجب ... إذا، لكن ... في بناء حجته فجاءت صارمة لا تدع مجالا للشك. وقد تابع استشهاده بآيات القرآن الكريم في نفس السياق وهو إثبات فضله عن طريق ذكر خصائصه حيث استشهد بقوله تعالى: " ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم" ⁶ وقد علق المؤلف على هذا الشاهد قائلا: " يريد اختلاف اللغات والمناظر والهيآت" ⁷.

1 - الآية 31 من سورة النازعات

2 - الآية 4 من سورة الرعد

3 - ابن قتيبة: تأويل مشكل القرآن: ص 5

4 - الآية 4 من سورة الرعد

5 - ابن قتيبة: تأويل مشكل القرآن: ص 5

6 - الآية 22 من سورة الروم

7 - ابن قتيبة: تأويل مشكل القرآن: ص 5

وهي حجة تثبت معجزة الله في خلق الإنسان، يثبتها الواقع وبالتالي تحدث فعلها الإقناعي.

ثم انتقل في معرض استشهاده إلى ذكر بعض الشواهد القرآنية التي أثرت في الشعر العربي ومنها قوله : وفي قوله تعالى : " وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب " ¹ يريد أنها تجمع وتسير، فهي لكثرتها كأنها جامدة واقفة في رأى العين، وهي تسير سير السحاب" ².

ونلاحظ هنا أن ابن قتيبة قد وظف " الحجج الجاهزة أو غير الصناعية . ويدخل في نطاقها القوانين والشهود... ومنها في الخطابة العربية تضمين الآيات القرآنية والأحاديث وأبيات الشعر ... وهي حجج جاهزة تكتسب قوتها من مصدرها ومن مصادقة الناس عليها وتواترها ، وتدخل الخطيب ينحصر في اختيارها وتوجيهها إلى الغرض المرصودة للاستدلال عليه " ³.

وقد أشار ابن قتيبة إلى سوء فهم المنكرين للقرآن الكريم كوسيلة للدفاع عنه وكاستراتيجية منه لدحض ادعاءاتهم عن طريق تحليل بعض الآيات التي تعرضوا لها فقال : " وقد قال قوم بقصور العلم وسوء النظر في قوله تعالى : " وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين، وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال " ⁴ وما في هذا الكلام من فائدة ؟ وما في الشمس إذا مالت بالغداة والعشي عن الكهف من الخبر؟ " ⁵.

فابن قتيبة هنا يستعرض ادعاء الطاعنين بعدم توفر الفائدة في هذه الآية القرآنية وكيف تحايلوا فأولوها تأويلاً خاطئاً فرد عليهم بقوله : " ونحن نقول : وأي شيء أولى بأن يكون يكون فائدة من هذا الخبر ؟ وأي معنى ألطف مما أودع الله هذا الكلام؟ وإنما أراد عز وجل : أن يعرفنا لطفه للفتية وحفظه إياهم في المهجع واختياره لهم أصلح المواضع للرقود، فأعلمنا أنه بؤاهم كهفاً في مقناة الجبل، مستقبلاً بنات نعش، فالشمس تزور عنه وتستديره. طالعة، وجارية، وغاربة، ولا تدخل عليهم فتؤذيهم بحرهما وتلفحهم بسمومها،

1 - الآية 88 من سورة النمل

2 - ابن قتيبة : تأويل مشكل القرآن : ص 5، 6

3 - محمد العمري : بلاغة الخطاب الإقناعي : ص 90

4 - الآية 17 من سورة الكهف

5 - ابن قتيبة : تأويل مشكل القرآن : ص 09

وتغير ألوانهم، وتبلي ثيابهم، وأنهم كانوا في فجوة من الكهف— أي متسع منه— ينالهم فيه نسيم الريح وبردها، وينفي عنهم غمة الغار وكربه"¹.

ثم يثبت ما لهذه الآية من فوائد ردا على هذه الادعاءات كما يوظف بعض الأدوات في بنائه هذا مثل "إنما" بالإضافة إلى الاستفهام الإنكاري في قوله: "وأي شيء أولى بأن يكون فائدة من هذا الخبر؟" كما يمكن ملاحظة حضور المرسل إليه في ذهن المتلقي فهو يقيم معه حوارا إذ يصفه بقصور الفهم و يدعو به يقوم فيقول : " وقد قال قوم ... " وفيه نوع من التحقير للمرسل إليه هنا كأن المؤلف قد غير من استراتيجيته اتجاه المرسل إليه عما كان سالفا حينما كان يدعو لتدبر الشواهد التي ساقها سابقا .

في النهاية يمكن القول بأن مقدمة كتاب تأويل مشكل القرآن جاءت حجاجية باعتبار أن المؤلف يريد منذ البداية نفي القصور عن كتاب الله وإثبات إعجازه، ثم الرد على الطاعنين فيه من خلال الاستشهاد بآيات القرآن الكريم والتراث العربي الشعري ويبدو ابن قتيبة على وعي وهو يكتب مقدمته حيث اعتمد الحجاج عن طريق الحجة الدامغة كإشارة منه إلى المنهج الذي سيعتمده من خلال هذا الكتاب الذي يدور موضوعه ومثته حول المحاور الأساسية التي جاءت فيه من خلال إثبات فضل القرآن الكريم وإعجازه بالحديث عن خصائصه كالإيجاز أو المجاز ثم اتهام الطاعنين بالقصور والعجز عن فهم معانيه وآياته وهو ما فصله في متن الكتاب متبعا نفس المنهج موظفا حججا تاريخية نقلية من القرآن الكريم أو التراث الشعري أو كلام العرب حيث أثبت بأن القرآن الكريم جاء بلغة العرب .

وقد تناول الكتاب كما يرى محمد العمري في كتاب "البلاغة العربية " قضايا أساسية في ثلاثة أصناف هي :

- 1- قضايا تتعلق بضبط النص وانسجامه من حيث اختلاف القراءات والإعراب.
 - 2- قضية انسجام النص "ما ادعي من التناقض والاختلاف "
 - 3- قضية المتشابه الذي تفرعت عنه فصول تتعلق بالتركيب أو النظم بصفة عامة : "
- المجاز والاستعارة والحذف والتكرار"²

1 - المصدر السابق : ص 09

2 - د/ محمد العمري : البلاغة العربية : 145

وإذا ما قارننا بين مقدمة الكتاب ومتمته فإننا نجد بأن ابن قتيبة لم يخرج في متمه عن مضمون المقدمة إذ جمع في كليهما بين الدفاع عن القرآن والرد على الطاعنين فيه .

2 - مقدمة دلالت الإعجاز :

كابن قتيبة اعتمد الجرجاني في مقدمته نفس استراتيجية الخطاب الإقناعي قصد إثبات إعجاز القرآن الكريم في مؤلفه متمثلا برسلا إليه ولكن هذه المرة ليس طاعنا في آيات القرآن الكريم فقط وإنما هو ينكر قيمة الشعر وعلم النحو أيضا فاعتمد في مقدمته حجة وصفية تتمثل في إبراز قيمة وفضل هذين العلمين وأهميتهما في إدراك إعجاز القرآن فبنى حجته على إثبات فضل العلم من خلال تعداد أوصافه فقال بعد ذكر الفضائل والبحث في منازلها وتبيين مواقفها من العظم لمعرفة أحقها بالتقديم والتعظيم فوجد بأن العلم أولى بذلك : " ...وجدنا العلم أولاها بذلك، وأولها هنالك إذ لا شرف إلا وهو السبيل إليه، ولا حيز إلا وهو الدليل عليه"¹.

وقد أفاض في ذكر فضل العلم والرفع من شأنه ثم انتقل إلى المفاضلة بين فروع العلم وفنونه فوجد أن أفضلها على الإطلاق هو علم البيان نظرا لفضله في إدراك إعجاز القرآن الكريم رغم أنه لقي الضيم، فبه يتم كشف وإدراك إعجاز القرآن وخروجه عن نطاق البشر، فنلاحظ هنا أن الجرجاني انطلق من العام إلى الخاص ليثبت الإعجاز البياني للقرآن الكريم حيث بدأ بإثبات فضل العلم ثم بين فضل علم البيان وبعدها أشار إلى أن فئة من العلماء الذين اتبعوا هذا العلم غفلوا عن كونه أداة لإدراك إعجاز القرآن الكريم. ثم انتقل إلى بناء حجة أخرى أثبت من خلالها أهمية معرفة الشعر وعلم النحو لإدراك إعجازه حيث أشار إلى أن بعض العلماء زهدوا في هذين العلمين مبررين ذلك بقولهم : "أما الشعر فخيال إليهم أنه ليس فيه كثير طائل، و أن ليس إلا ملحّة أو فكاهة أو بكاء منزل أو وصف طلل، أو نعت ناقة أو جمل، أو إسراف قول في مدح أو هجاء وأنه ليس بشيء تمس الحجة إليه في صلاح دين أو دنيا.

1 - الجرجاني : دلائل الإعجاز : ص 19

وأما النحو فظننته ضرباً من التكلف، وباباً من التعسف، وشيئاً لا يستند إلى أصل، ولا يعتمد فيه على عقل. وأن ما زاد منه على معرفة الرفع و النصب، وما يتصل بذلك مما تجده في المبادئ فهو فضل، لا يجدي نفعاً، ولا تحصل منه فائدة.¹

وقد رد عليهم بقوله: "أبلى أشباه لهذه الضنون من القبيلين و آراء لو علموا مغبتها وما تقود إليه لتعودوا بالله منها، و لأنفوا لأنفسهم من الرضا بها، ذاك لأنهم بإيثارهم الجهل بذلك على العلم في معنى الصاد عن سبيل الله و المبتغي إطفاء نور الله".²

هنا أن الجرجاني اعتمد على القوة التأثيرية للغة من أجل إقناع هؤلاء بخطئهم في رفض هذين العلمين وكذا على الخطاب الديني الرادع حيث ساوى بين جهل هذين العلمين والصد عن سبيل الله ، باعتبار أنه يخاطب عارفين بمدى جرم من يصد عن سبيل الله. وقد دعم هذه النتيجة بقياس أثبت من خلاله بما لا يدع مجالاً للشك في أهمية معرفة الشعر الذي هو ديوان العرب فقال: " وذاك أنا إذا كنا نعلم أن الجهة التي منها قامت الحجة بالقرآن وظهرت وبانت وبهرت ، هي أن كان على حد من الفصاحة تقصر عنه قوى البشر، ومنتها إلى غاية لا يطمح إليها بالفكر. وكان محالاً أن يعرف كونه كذلك إلا من عرف الشعر الذي هو ديوان العرب وعنوان الأدب، والذي لا يشك أنه كان ميدان القوم إذا تجاروا في الفصاحة والبيان وتنازعوا فيهما قصب الرهان. ثم بحث عن العلل التي بها كان التباين في الفضل، وزاد بعض الشعر على بعض".³

إن الجرجاني هنا عمد إلى توظيف أدوات وروابط لغوية لكي يقوي حجته ويربط المعطيات بالنتيجة. مثل ذاك، إذا كان، أن، حيث سلم بالنتيجة المتمثلة في كون القرآن على حد من الفصاحة تقصر عنه قوى البشر ثم اشترط للوصول إلى هذه الغاية معرفة الشعر كونه ديوان العرب الذي تجاروا حوله في الفصاحة والبيان ومن أجل دعم هذه الحجة اعتبر الصاد عن معرفة الشعر بمثابة صاد من أن تعرف حجة الله تعالى مثله مثل من يمنع الناس عن حفظ كتاب الله وقد برر استنتاجه هذا بقوله: "... ذاك لأننا لم نتعبد بتلاوته وحفظه، والقيام بأداء لفظه، على النحو الذي أنزل عليه، وحراسته من أن يغير ويبدل، إلا لتكون الحجة به قائمة على وجه الدهر تعرف في كل زمان، ويتوصل إليها في كل أوان، ويكون

1 - المصدر السابق: ص 22

2 - نفسه : ص 22، 23

3 - نفسه : ص 23

سبيلها سبيل سائر العلوم التي يرويها الخلف عن السلف، ويؤثرها الثاني عن الأول. فمن حال بيننا وبين ماله كان حفظنا إياه، واجتهادنا في أن نؤديه ونرعاه، كان كمن رام أن ينسيناه جملة، ويذهب من قلوبنا دفعة¹.

وقوله أيضا : " فسواء من منعك الشيء الذي ينتزع منه الشاهد والدليل، ومن منعك السبيل إلى انتزاع تلك الدلالة والاطلاع على تلك الشهادة . ولا فرق بين من أن أدمك الدواء الذي تستقي به من دائك، وتستبقي به حشاشة نفسك، وبين من أدمك العلم بأن فيه شفاء، وأن لك فيه استبقاء²."

وهو هنا يعتمد حججا رادعة من أجل حمل المرسل إليه على الرجوع عن أفكاره وأفعاله. ولم يكتف الجرجاني في مقدمته بما قدمه كحجج على إعجاز القرآن و قد توقع بأن الاستراتيجية الأولى في الإقناع قد أغفلت أشياء يتوقعها المرسل إليه اقترح طريقا أخرى لإثبات إعجاز القرآن فقال : " فإن قال منهم قائل أغفلت فيما رتبت، فإن لنا طريقا إلى إعجاز القرآن، وهو علمنا بعجز العرب عن أن يأتوا بمثله، وتركهم أن يعارضوه مع تكرار التحدي عليهم وطول التقريع لهم بالعجز عنه ولأن الأمر كذلك ما قامت به الحجة على العجم قيامها على العرب واستوى الناس قاطبة فلم يخرج الجاهل بلسان العرب من أن يكون محجوجا بالقرآن³."

وما هنا " زائدة للزينة⁴" ونلاحظ هنا أن الجرجاني لا يزال يبني حجته على القياس والاستنتاج المنطقي أي استخراج النتائج من مقدمات معطاة. حيث وصل إلى النتيجة المتمثلة في قيام الحجة بالقرآن على العرب وعلى غير العرب سواسية وقد استنتجها من مقدمات هي :

✓ العلم بعجز العرب عن معارضة القرآن أي الإتيان بمثله.

✓ استمرار تحديهم بذلك و طول التقريع لهم بالعجز عنه

وقد ربط بين النتيجة و المقدمات بأدوات و روابط لغوية هي : أن ، لأن ...

1 - المصدر السابق: ص 23

2 - نفسه : ص 23:

3 - نفسه : ص 23 ، 24

4 - نفسه : ص 23

وفي نهاية المقدمة وظف الجرجاني حجة عاطفية حيث حاول مخاطبة المرسل إليه بحديث وجداني مشحون بالعاطفة الدينية غلبت عليه أفعال الأمر كقوله : " خبرنا عما اتفق عليه المسلمون من اختصاص نبينا عليه السلام بأن كانت معجزته باقية على وجه الدهر، أتعرف له معنى غير أن لا يزال البرهان منه لائحا معرضا لكل من أراد العلم به وطلب الوصول إليه، والحجة فيه وبه ظاهرة لمن أرادها، والعلم بها ممكنا لمن التمسها؟ فإذا كنت لا تشك في أن لا معنى لبقاء المعجزة بالقرآن إلا أن الوصف الذي له كان معجزا قائم فيه أبدا، وأن الطريق إلى العلم موجود، والوصول إليه ممكن، فانظر أي رجل تكون إذا أنت زهدت في أن تعرف حجة الله تعالى، وآثرت فيه الجهل على العلم وعدم الاستبانة على وجودها. وكان التقليد فيها أحب إليك، والتعويل على علم غيرك أثر لديك ، ونح الهوى عنك ، وراجع عقلك ، وصدق نفسك ، بين لك فحش الغلط فيما رأيت وقبح الخطأ في الذي توهمت. وهل رأيت رأيا أعجز، واختبارا أقبح، ممن كره أن تعرف حجة الله تعالى من الجهة التي إذا عرفت منها كانت أنور و أبهر، وأقوى وأقهر، وآثر أن لا يقوى سلطانها على الشرك كل القوة، ولا تعلو على الكفر كل العلو. والله المستعان."¹

فاللغة هنا ذات والتي قد تتمحور حول المرسل إليه، وذلك بمثل النداء والأمر"² بالإضافة إلى الوظيفة الحجاجية التي تقيمها عليه " حيث توخى الجرجاني من خلال هذه الأفعال أن يؤثر في مشاعر المرسل إليه وسلوكه "³ من خلال اعتماد استراتيجية التوجيه عن طريق توظيف الأفعال التوجيهية و" هدفها جعل المرسل إليه يفعل شيئا ما، ويحاول المرسل تحقيق هذا الهدف بدرجات مختلفة تتراوح بين اللين وذلك بالإغراء أو الاقتراح أو النصح، وبين العنف والشدّة، وذلك بالإصرار على فعل الشيء."⁴ من خلال الأفعال " راجع عقلك ...، وصدق نفسك ، ... "⁵ التي تدعم استراتيجية المؤلف . كما دعم هذه الاستراتيجية بالاستفهام الموجه : الذي يلعب دورا هاما في عملية الحجاج كونه يجسد الباعث عليه بالموافقة تارة والاعتراض تارة أخرى. فهو من أنجع أنواع الأفعال اللغوية. لاختيار أحد أمرين في قوله : " وهل رأيت رأيا أعجز واختيارا أقبح ممن كره أن تعرف حجة الله تعالى ؟

1 - المصدر السابق: ص 24

2 - عبد الهادي بن ظافر الشهري : استراتيجيات الخطاب : ص 13

3 - نفسه : ص 156

4 - عبد الهادي بن ظافر الشهري : استراتيجيات الخطاب : ص 128

5 - الجرجاني : دلائل الإعجاز : 24

" إذ لم يترك الجرجاني هنا مجالا للمرسل إليه في أن يكون في هذه الفئة التي يقبها و يصفها بالعجز والصد عن معرفة حجة الله. إذ "يعد الاستفهام من أنجع أنواع الأفعال اللغوية حجاجا وهو ما يتوسل به الكثير في فعلهم، إذ إن طرح السؤال يمكن أن يضخم الاختلاف حول موضوع ما إذا كان المخاطب لا يشاطر المتكلم الإقرار بجواب ما، كما يمكن أن يلطف السؤال ما بين الطرفين من اختلاف إذا كان المخاطب يميل إلى الإقرار بجواب غير جواب المتكلم"¹ ومن هنا يمكن القول بأن مقدمة الجرجاني حجاجية حيث تطرق إلى الحديث عن بعض قضايا الأدب كالفصاحة والبلاغة وعن فضل علم البيان وأهميته في إظهار إعجاز القرآن الكريم كما أشار إلى ضرورة الاعتناء بالنحو والشعر العربي لأنها الوسيلة التي تؤدي إلى إدراك إعجاز القرآن الكريم، معتمدا في ذلك الخطاب الإقناعي عن طريق الحجج العقلية والمنطقية تارة والعاطفية تارة أخرى. لقد رسم الجرجاني طريقا من خلال هذه المقدمة وحدد هدفا يريد الوصول إليه وهو إثبات إعجاز القرآن الكريم فقال: " إن لي طريقا إلى إعجاز القرآن"¹ ولكي يصل إلى هذا الهدف المنشود رأى الجرجاني أن أول ما يبدأ به هو إثبات فضل العلم الذي به تدرك الأمور ثم اختار من بين العلوم علم البيان الذي يمثل أساس الفصاحة والبلاغة وأنه السبيل إلى إدراك إعجاز القرآن الكريم الذي يختص بالفصاحة إلى حد خروجه عن نطاق البشر فرأى بأن إدراك هذا الإعجاز لا يكون إلا لمن عرف الشعر الذي ميز به العرب وبه تجاروا في الفصاحة والبلاغة . وبأن من رفض هذه الأمور يكون بمثابة من يصد عن سبيل الله . وقد اعتمد الجرجاني من أجل إيصال هذه الأفكار على الحجج والبراهين عن طريق الاستنتاجات المنطقية التي لا تترك أمام سامعها مجالا للشك فيها.

وهي نفس الاستراتيجية التي يعتمدها في متن الكتاب إذ أنه لما أشار إلى ضرورة الإحاطة بعلم الشعر والنحو لإدراك إعجاز القرآن الكريم خصص لهما في المتن نصيبا فحاول الرد على هؤلاء الذين يزهدون في رواية الشعر وحفظه وكذا على الذين يزهدون في علم النحو؛ ثم انطلق الجرجاني في حديثه عن النظم باعتباره السبيل إلى معرفة إعجاز القرآن ، فشرح نظريته في النظم ثم طبقها. وقد أشار في معرض دراسته لنظرية النظم إلى

1 - عبد الهادي بن ظافر الشهري : استراتيجيات الخطاب : ص 483 - 484

قضية اللفظ والمعنى وعن المجاز والكناية وظاهرة التقديم والتأخير في الكلام وعن التشبيه وبلاغة الاستعارة وضروب المجاز العقلي وعن مراتب البلاغة ... الخ .

في النهاية نستنتج أن مقدمة دلائل الإعجاز فيها إشارات لما جاء في متن الكتاب، ولكن المتن جاء أوسع من المقدمة نظرا للفكر الموسوعي الذي يتميز به عبد القاهر الجرجاني، كما يتميز أيضا " بقوة عارضته على الكلام على مذهب الأشاعرة ولهجة المحاجة والجدل الملازمة لأصل مشروعه البلاغي، حيث كانت كل لبنة تتبني على نقض لبنة سابقة وكل رأي ينشأ من مخالفته لرأي سابق واستعداد كتابه الأساس دلائل الإعجاز لأن يكون فرصة الثقافة الإسلامية لدراسة الخطاب في أبعاده الاستدلالية المنطقية." ¹.

3 - الخطاب الإقناعي بين مقدمتي تأويل مشكل القرآن و دلائل الإعجاز:

✓ **استراتيجية الإقناع :** لقد تم " تصنيف أنواع استراتيجيات الخطاب اعتمادا على معايير واضحة هي :

❖ **المعيار الاجتماعي :** وهو مرتبط بالعلاقة بين طرفي الخطاب أي المرسل والمرسل إليه و قد تفرعت عنه استراتيجيتان : هما التضامنية والتوجيهية.

❖ **معيار شكل الخطاب اللغوي:** للدلالة على قصد المرسل وتؤسس عليه الاستراتيجية التلميحية.

❖ **معيار هدف الخطاب:** وتتأسس عليه استراتيجية الإقناع التي يرمي من خلالها المرسل إقناع المرسل إليه بما يراه ... ولتحقيق هذا الهدف استراتيجية تداولية تعرف باستراتيجية الإقناع، حيث تختلف الاستراتيجيات بحسب العلاقة بين طرفي الخطاب وتجسيدها بشكل الخطاب اللغوي لذلك تختلف الآليات والأدوات اللغوية باختلاف الحقول التي يمارس المرسل فيها الإقناع." ²

✓ **مفهوم الإقناع:** " يعني الإقناع العملية الكلامية التي تستهدف التأثير العقلي والعاطفي في المتلقي أو الجمهور، قصد تفاعله إيجابيا مع الفكرة أو السلعة

1 - حمادي صمود و فريق من المؤلفين العرب : أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم ، منشورات كلية الآداب منوبة ، د ت : ص 23

2 - ينظر: عبد الهادي بن ظافر الشهري : استراتيجيات الخطاب: ص : 444

المعروضة عليه باعتماد الحجج والبراهين الإثباتية عبر وسائط طبيعية أو صناعية، أما الاقتناع فهو فعل الأثر الناجم عن عملية الإقناع لدى المتلقي متى توافرت الظروف، وتهيأت من لدن المرسل (المقنع) فيحدث الانسجام بين الرغبة الذاتية والإمكانات المتاحة والهدف المطلوب، ويمكن القول بأن الإقناع جهد اتصالي لساني بالدرجة الأولى مؤسس على قصد، ومخطط له سلفا وفق أهداف معينة لاستمالة المتلقي وتعديل سلوكه ومواقفه الشخصية في ظروف مقامية معينة، وما يجب التنبه إليه في هذا المقام أن النص الإقناعي القائم على الحجج قد تختلف مقاصده بناء على الاستراتيجية الموضوعية فقد يبنى على الإغراء، فتكون المتعة الشخصية غايته، وقد يتجه وجهة إقناعية عقلية بحتة تضطلع الحجج المنطقية وأساليب الاستدلال بمهمة توجيه فكر المتلقي.¹

تتشابه المقدمتين من خلال هيمنة الخطاب الإقناعي ومخاطبة المرسل إليه متشابه يتصف بالإنكار والجحود وتشتركان في سياق الدفاع عن إعجاز القرآن الكريم؛ ولكنهما تختلفان في استراتيجية كل مرسل في الوصول إلى إثبات إعجاز القرآن فابن قتيبة اعتمد على حجج صناعية منقولة غالبا من القرآن الكريم وبعضها من الحديث الشريف، كما اعتمد بعض أبيات الشعر من التراث العربي ودعم هذه الحجج بتوظيفه " تأويل النصوص الدينية " ² واستثمارها في مقصده الإقناعي؛ أما الجرجاني فقد اعتمد في محاولة إقناع المرسل إليه على حجج منطقية وفق القياس الصوري واستخلاص النتائج من المقدمات من خلال التركيز على الجوانب اللغوية وتوظيف الأدوات التي تلعب دورا حجاجيا كأفعال الأمر والاستفهام والنهي ... الخ من خلال التركيز على الروابط المنطقية اللغوية مثل : "إذا كان ... فإن، لأن ... الخ " حيث نجد بأن ابن قتيبة اعتمد منهاجاً له التأويل والبحث عن خصائص اللغة العربية ومقارنتها بما جاء في القرآن الكريم وتحليل خصائص أسلوبه من أجل إثبات إعجازه؛ بينما انطلق الجرجاني من التسليم بفكرة إعجاز القرآن الكريم ثم راح يبحث عن مكنن الإعجاز فيه وقد حصره في نظمه وهو ما جعله يكتشف أسس نظريته المشهورة والمسماة بنظرية النظم .

1 - ينظر : حميد عبيدة : الحجاج في الفلسفة، مجلة فكر و نقد : ص 15

2 - محمد العمري البلاغة الخطاب الإقناعي : ص 46

II - قضايا نقد الشعر :

1 - مقدمة الشعر والشعراء:

تتجلى بيانات الحجاج في مقدمة الشعر والشعراء في مواضع قليلة منها :

حجته في اعتماد الشعراء المشهورين واستثناء غير المشهورين من الشعراء في تصنيفه ونجده يوجه خطابه إلى مرسل إليه يتمثل في القارئ موظفا ضمير:

❖ المخاطب المفرد معتمدا وصف الشعراء غير المشهورين في قوله : " فأما من خفي اسمه، وقل ذكره، وكسد شعره، وكان لا يعرفه إلا بعض الخواص فما أقل من ذكرت من هذه الطبقة " ¹ ثم يبرر قلة اعتماده لهؤلاء بحجة شبه منطقية تعتمد الروابط اللغوية في بنائها ومبنية على العقل في قوله : " ... إذ كنت لا أعرف منهم إلا القليل، ولا أعرف لذلك القليل أيضا أخبارا، وإذ كنت أعلم أنه لا حاجة بك إلى أن أسمى لك أسماء لا أدل عليها بخبر أو زمان، أو نسب أو نادرة، أو بيت يستجاد، أو يستغرب " ² فالمؤلف هنا يبرر فعله هذا بأمرين وهو من جهة عدم معرفته بهؤلاء وإحاطته بأخبارهم، ومن جهة أخرى عدم حاجة المرسل إليه لمثل هؤلاء ما دام لا يجني من ذكرهم له فائدة مرجوة .

❖ حجته في القصور عن الإحاطة بالشعراء : و نجد ذلك في قوله : " ولعلك تظن - رحمك الله - أنه يجب على من ألف مثل كتابنا هذا ألا يدع شاعرا قديما ولا حديثا إلا ذكره وذلك عليه، وتقدر أن يكون الشعراء بمنزلة رواة الحديث والأخبار، والملوك والأشراف، الذين يبلغهم الإحصاء، ويجمعهم العدد.

والشعراء المعروفون عند عشائهم وقبائلهم في الجاهلية والإسلام، أكثر من أن يحيط بهم محيط أو يقف من وراء عددهم واقف ولو أنفذ عمره في التنقيب عنهم، واستفرغ مجهوده في البحث والسؤال ولا أحسب أحدا من علمائنا اسغرق شعر قبيلة حتى لم يفته من تلك القبيلة شاعر إلا عرفه، ولا قصيدة إلا رواها " ³ حيث برر هذا التقصير بكثرة عدد هؤلاء الشعراء وأنه لا أحد من العلماء استطاع الإحاطة بهم

1 - ابن قتيبة : الشعر و الشعراء : ص 7 ، 8

2 - نفسه : ص 8

3 - نفسه : ص 8

وبأن ذلك خارج عن نطاق استطاعة البشر وهي حجة منطقية عقلية، وقد دعم ذلك بحجة مصطنعة تتمثل في رواية عن أبي ضمضم.

❖ حجته في تصنيف الشعراء: لقد برر المؤلف من خلال مقدمته لطريقته في اختيار الشعراء الذين صنفهم والمقاييس التي اعتمدها لذلك خاصة فيما يتعلق بمسألة القديم والمحدث حيث اعتمد المؤلف لذلك حجتين علميتين تميلان إلى الموضوعية :

- قياس مضمحل يتمثل فيما يسمى بـ " قياس الخلف، وهو إثبات الأمر ببطلان نقيضه " ¹ حيث اعتمد إثبات خطأ علماء عصره في استجادتهم الشعر السخيف لتقدم قائله ووضعهم للشعر الرصين للمتحدث فقال: " فإني رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله، ويضعه في متخيره، ويرذل الشعر الرصين ولا عيب له عنده إلا أنه قيل في زمانه، أو أنه رأى قائله " ² فهو يعيب على علماء زمانه أن يجلوا القديم حتى لو كان شعره سخيفا وسخفوا الجديد حتى ولو كان شعره جيدا رصينا.

- قياس منطقي موضوعي حيث قدم حجته في مخالفة هذه القاعدة فقال " لم يقصر الله العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن، ولا خص به قوما دون قوم، بل جعل ذلك مشتركا مقسوما بين عباده في كل دهر، وجعل كل قديم حديثا في عصره، وكل شرف خارجية في أوله. فقد كان جرير والفرزدق والأخطل وأمثالهم يعدون محدثين، وكان أبو عمرو بن العلاء يقول : لقد كثر هذا المحدث وحسن حتى لقد هممت بروايته. ثم صار هؤلاء قدماء عندنا بعد العهد منهم، وكذلك يكون من بعدهم لمن بعدنا، كالخريمي والعتابي والحسن بن هانئ وأشباههم. فكل من أتى بحسن من قول أو فعل ذكرناه له، وأثنينا به عليه ، ولم يضعه عندنا تأخر قائله أو فاعله ، أو حادثة سنه. كما أن الردى إذا ورد علينا للمتقدم أو الشريف لم يرفعه عندنا شرف صاحبه ولا تقدمه " ³ وهي حجة منطقية تميل إلى العلمية جعلت ابن قتيبة يبدو " موضوعيا

1- في بلاغة الخطاب الإقناعي للعمري : ص 77

2- ابن قتيبة : الشعر والشعراء: ص 10

3 - نفسه : ص 11

بالغ الموضوعية في نصوص متعددة يتبينها القارئ الرشيد في مقدمته المشهورة
لكتاب الشعر والشعراء "1.

2 - مقدمة عيار الشعر:

لقد برر ابن طباطبا موقفه النقدي الذي تبناه بالمأزق الذي وقع فيه الشعراء المولودون
باعتبار أن معظم المعاني قد تناولها القدماء " حيث قال : والمحنة على شعراء زماننا في
أشعارهم أشد منها على من كان قبلهم لأنهم قد سبقوا إلى كل معنى بديع ولفظ فصيح،
وحيلة لطيفة، وخلاصة ساحرة "2.

وقد استعمل حجة الوصف عن طريق تقرير حالهم حيث قال: فإن أتوا بما يقصر عن
معاني أولئك ولا يربى عليها لم يتلق بالقبول وكان كالمطرح المملول"3.

وقد وظف ابن طباطبا هنا قياسا شرطيا عن طريق الروابط الحجاجية " فإن " ... من
مقدمتين :

✓ أتوا بما يقصر عن معاني أولئك.

✓ لم يتعوده الناس

للوصول إلى النتيجة : لم يتلق بالقبول.

وأردفه بقياس ثان في قوله " والشعراء في عصرنا إنما يثابون على ما يستحسن من لطيف
ما يوردونه من أشعارهم، وبديع ما يغربونه من معانيهم، وبليغ ما ينظمونه من ألفاظهم
ومضحك ما يروونه من نوادرهم، وأنيق ما ينسجون من وشى قولهم، دون حقائق ما
يشتمل عليه من المدح، والهجاء، وسائر الفنون التي يصرفون القول فيها. فإذا كان المديح
ناقصا عن الصفة التي ذكرناها، كان سببا لحرمان قائله، المتوسل به"4.

وهو قياس شرطي أيضا حيث وظف الرابطة إنما وإذا للربط بين المقدمتين والنتيجة، حيث
بدأ كلامه بالنتيجة – الثواب على الاستحسان- و أكدها بالجملة الشرطية " إذا أساء حرم "

1 - د/ فتحي أحمد عامر: من قضايا التراث العربي : ص18

2 - ابن طباطبا : عيار الشعر : ص 46 ، 47

3 - نفسه : ص47

4 - نفسه : ص 47

فصور هنا قمة الأزمة التي يعيشها الشعراء المولدون ثم بدأ الحل لهذه الأزمة فقال: " فينبغي إلا القليل للشاعر في عصرنا أن لا يظهر شعره إلا بعد ثقته بجودته وحسنه، وسلامته من العيوب التي نبه عليها، وأمر بالتحرز منها، ونهى عن استعمال نظائرها، ولا يقع في نفسه أن الشعر موضع اضطرار، وأنه يسلك سبيل من كان قبله، ويحتج بالأبيات التي عيبت على قائلها؛ فليس يقتدى بالمسيء، وإنما الاقتداء بالمحسن، وكل واثق فيه مجل له إلا القليل".¹

ولكنه حل صعب الأمر على الشعراء خاصة بعد أن اشترط عليهم عدم الإغارة على شعر غيرهم في قوله: "ولا يغير على معاني الشعر فيودعها شعره، ويخرجها في أوزان مخالفة لأوزان الأشعار التي يتناول منها ما يتناول، ويتوهم أن تغييره للألفاظ و الأوزان يستر سرقة".²

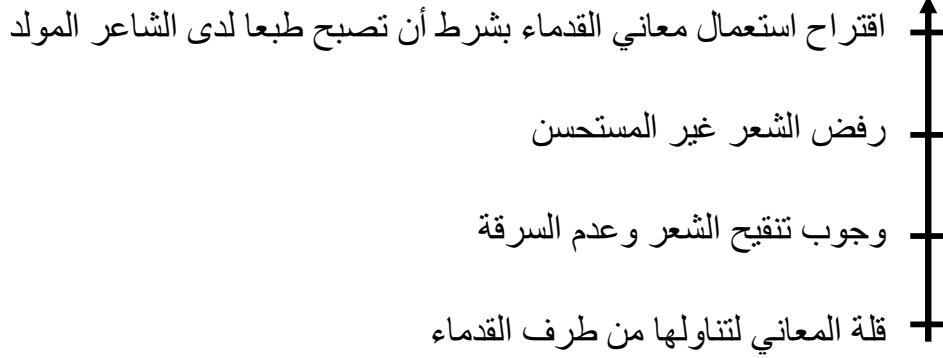
وفي النهاية علمه كيف يتعامل مع المعني القديمة لكي لا يعبر ذلك حيث قال: "...بل يديم النظر في الأشعار التي قد اخترناها لتلتصق معانيها بفهمه، وترسخ أصولها في قلبه، وتصير مواد لطبعه، ويذرب لسانه بألفاظها؛ فإذا جاش فكره بالشعر أدى إليه نتائج ما استفادة مما نظر فيه من تلك الأشعار، فكانت تلك النتيجة كسبيكة مفرغة من جميع الأصناف التي تخرجها المعادن".³

حيث دعى الشعراء إلى قراءة الشعر والتدرب عليه حتى يصير بمثابة الطبع فيهم ثم إذا جاءوا لنظمه لم يشعر سامعه بأنه كان لغيره. وقد جاء تبريره لهذا الموقف النقدي على شكل قياسات منطقية متتالية كل نتيجة تصبح مقدمة لنتيجة أخرى وهي مرتبة تصاعديا انطلاقا من محنة الشعر المولدين وصولا إلى اقتراحه للحل الذي تبناه كنتيجة نهائية لكل هذه القياسات على الشكل الآتي:

1 -المصدر السابق : ص 47

2 - نفسه : ص 47 ، 48

3 - نفسه : ص 48



وهو ما يسمى بنظرية السلالم الحجاجية التي تطرح تصورا لعمل المحاجة من حيث هو تلازم بين قول الحجة ونتيجتها، لكن قول الحجة والنتيجة في تلازمها تعكس تعددا للحجة في مقابل النتيجة الواحدة على أن هناك تفاوتاً من حيث القوة فيما يخص بناء هذه الحجج، فهي تنطلق من " إقرار التلازم في عمل المحاجة بين القول الحجة ق ونتيجته ومعنى التلازم هنا هو أن الحجة لا تكون حجة بالنسبة إلى المتكلم إلا بإضافتها إلى النتيجة ومع الإشارة إلى أن النتيجة قد يصرح بها وقد تبقى ضمنية " ¹ بحيث تتجلى العلاقة المجازية بين الدعوى والحجة ، لتصبح شبه منطقية إلى حد ما، وذلك بالرغم من أنها تتجسد، بطبيعة الحال، من خلا الأدوات اللغوية فيتمثل صلب فعل الحجاج في تدافع الحجج مع ترتبها حسب قوتها، إذ لا يثبت غالبا، إلا الحجة التي تفرض ذاتها على أنها أقوى الحجج في السياق، ولذلك يرتب المرسل الحجج التي يرى أنها تتمتع بالقوة اللازمة التي تدعم دعواه، فهذا الترتيب هو ما يسمى بالسلم الحجاجي، ومن أبسط تمثيلات ما يكتب عن الإنسان عند عرض سيرته الذاتية من التراتيبات في حياته، منها نموه المعرفي وأعماله. ويمكن تعريف السلم الحجاجي بأنه عبارة عن مجموعة غير فارضة من الأقوال مزودة بعلاقة ترتيبية وموفية بالشرطين التاليين :

❖ كل قول يقع في مرتبة ما من السلم يلزم عنه ما يقع تحته، بحيث تلزم عن القول الموجود في الطرف الأعلى جميع الأقوال التي دونه.

1 - شكري المبخوت : نظرية الحجاج في اللغة ، ضمن (أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم) إشراق حمادي صمود ، كلية الآداب ، جامعة الآداب و الفنون و العلوم الإنسانية ، د ت : ص: 363

❖ كل قول كان في السلم دليلا على مدلول معين، كان ما يعلوه مرتبة دليلا أقوى عليه

1"

وتتمثل أهمية نظرية السلالم الحجاجية أساسا في إخراج قيمة القول الحجاجي من حيز المحتوى الخبري بالقول وهذا يعني أن القيمة الحجاجية لا يمكن الحكم عليها بالصدق أو الكذب لأنها لا تخضع لشروط الصدق المنطقية فهي ... ليست قيمة مضافة إلى البنية اللغوية بل مسجلة فيها يتكهن بها التنظيم الداخلي للغة وقد بين تحليل ديكرود من نفي أنه يمكن اختزاله في النفي المنطقي. فإذا كان للقول وجهة حجاجية تحدد قيمته باعتباره يدعم نتيجة ما وإذا كان القول مندرجا ضمن قسم حجاجي قائم على قوة بعض مكوناته وضعف بعضها الآخر بالنسبة إلى نتيجة ما فإن مفهوم السلم الحجاجي بتركيزه على الطابع المتدرج والموجه للأقوال يبين أن المحاجة ليست مطلقة إذ لا تتحدد بالمحتوى الخبري للقول ومدى مطابقته لحالة الأشياء في الكون وإنما هي رهينة اختيار هذه الحجة أو تلك بالنسبة إلى نتيجة محددة لذلك فالحكم على المحاجة أساسه القوة والضعف اعتبارا لطابع التدرج فيها لا الصدق والكذب".²

ومن أجل تقوية حجته وتبرير موقفه وظف حجة الاستشهاد وذلك بنقله لقول خالد بن عبد الله القسري في قوله: ويذهب في ذلك إلى ما يحكى عن خالد بن عبد الله القسري، فإن قال: " حفظني أبي ألف خطبة ثم قال لي تناساها؛ فتناسيتها؛ فلم أرد بعد ذلك شيئا من الكلام إلا سهل علي. " فكان حفظه لتلك الخطب رياضة لفهمه، وتهذيبا لطبعه، وتلقيحا لذهنه، ومادة لفصاحته، وسببا لبلاغته ولسنه وخطابته".³

ويكون ابن طباطبا بذلك قد أبان عن رؤية نقدية ثاقبة حيث استطاع أن يطرح فكرة التناص بمفهومه الحديث.

1 - عبد الهادي بن ظافر الشهري : استراتيجيات الخطاب ص 499 – 500

2 - شكري المبخوت : نظرية الحجاج في اللغة : ص 370

3 - ابن طباطبا : عيار الشعر : ص 48

III - تبرير التأليف والتصنيف :

1 - تبرير التأليف:

رغم أن كتاب الصناعتين مؤلف في البلاغة إلا أن أبا هلال العسكري يبرر تأليفه بالحديث عن إعجاز القرآن الكريم وأهميته، وقد كانت " هذه الفكرة من العوامل الكبيرة التي وجهت المؤلف إلى تصنيف ذلك الكتاب " ¹ حيث حاول من خلال مقدمة الكتاب أن يثبت أن معرفة البلاغة واجبة على من يريد أن يدرك مكن إعجاز القرآن وذلك كحجة التبرير لتأليف الكتاب في علم البلاغة، وعلى ذلك فقد اعتمد المؤلف في بداية مقدمته الحجاج كاستراتيجية من أجل الإقناع بأهمية هذا العلم حيث قال: " اعلم علمك الله الخير وذلك عليه، وقيضه لك وجعلك من أهله أن أحق العلوم بالتعلم، وأولاها بالتحفظ بعد المعرفة بالله جل ثناؤه علم البلاغة، ومعرفة الفصاحة، الذي به يعرف إعجاز كتاب الله تعالى " ².

إذ نجد بأن أبا هلال هنا قصد إقناع المرسل إليه بضرورة معرفة هذا العلم بكونه الطريق المؤدية إلى معرفة إعجاز كتاب الله ولكي يقوي حجته وظف الدعاء في قوله: " علمك الله الخير... ذلك عليه ... قيضه لك ... جعلك من أهله " كفعل كلامي لاستمالة القارئ، وقد أصبح مفهوم الفعل الكلامي " نواة مركزية في الكثير من الأعمال التداولية. وفحواه أنه كل ملفوظ ينهض على نظام شكلي دلالي إنجازي تأثيري. وفضلا عن ذلك، يعد نشاطا ماديا نحويا يتوسل أفعالا قولية لتحقيق أغراض إنجازية (كالطلب والأمر والوعد والوعيد ... الخ) وغايات تأثيرية تخص ردود فعل التلقي (كالرفض والقبول). ومن ثم فهو فعل يطمح إلى أن يكون ذا تأثير في المخاطب، اجتماعيا أو مؤسساتيا، ومن ثم إنجاز شيء ما. هذا وقد توصل أوستين في آخر مرحلة من مراحل بحثه إلى تقسيم "الفعل الكلامي" إلى ثلاثة أفعال فرعية على النحو الآتي :

❖ **فعل القول (أو الفعل اللغوي)** : ويراد به إطلاق الألفاظ في جمل مفيدة ذات

بناء نحوي سليم وذات دلالة. ففعل القول يشتمل بالضرورة على أفعال لغوية

فرعي وهي المستويات اللسانية المعهودة : المستوى الصوتي، المستوى

التركيبي والمستوى الدلالي. ولكن أوستين يسميها أفعالا : الفعل الصوتي

وهو التلفظ بسلسلة من الأصوات المنتمية إلى لغة معينة، وأما الفعل التركيبي

1 - إحسان عباس تاريخ النقد الأدبي : ص : 347

2 - أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري : كتاب الصناعتين الكتابة والشعر: ج 1 تح: محمد أمين الخانجي،
نضارة المعارف الخانجية، ط1، الأستانة 1320 هـ، ص: 2

فيؤلف مفردات طبقا لقواعد لغة معينة وأما الفعل الدلالي فهو توظيف هذه الأفعال حسب معان وإحالات محددة.

❖ **الفعل المتضمن في القول :** وهو الفعل الإنجازي الحقيقي إذ أنه ينجز قولاً ما، وهذا الصنف من الأفعال الكلامية هو المقصود من النظرية برمتها، ولذا اقترح أوستين تسمية الوظائف اللسانية الثاوية خلف هذه الأفعال : القوى الإنجازية أمثلة ومن ذلك : السؤال، إجابة سؤال، إصدار تأكيد أو تحذير، وعد، أمر، شهادة في محكمة ... الخ. فالفرق بين الفعل الأول "فعل القول" والفعل الثاني "الفعل المتضمن في القول" هو أن الثاني قيم بفعل ضمن قول شيء، في مقابل الأول الذي هو مجرد قول شيء.

❖ **الفعل الناتج عن القول :** وأخيرا يرى أوستين أنه مع القيام بفعل القول، وما يصحبه من فعل متضمن في القول (القوة)، فقد يكون الفاعل (وهو هنا الشخص المتكلم) قائما بفعل ثالث هو التسبب في نشوء آثار في المشاعر والفكر، ومن أمثلة تلك الآثار : الإقناع، التضليل، الإرشاد، التثبيط... الخ. ويسميه أوستين الفعل الناتج عن القول، وسماه بعضهم الفعل التأثيري.¹ ويعتبر توظيف الدعاء ظاهرة مشتركة في معظم مقدمات المصادر التراثية.

كما وظف الوصف ويشمل عددا من الأدوات اللغوية كالصفة واسم الفاعل واسم المفعول إذ يلعب كل منهما دوره في الحجاج. " ² وذلك لإبراز مكانة كتاب الله والإقناع بضرورة إدراك إعجازه وإدراك إعجازه لا يأتي لطالبه إلا بمعرفة علم البلاغة والفصاحة فقال: "... الذي به يعرف إعجاز كتاب الله تعالى الناطق بالحق الهادي إلى سبيل الرشده المدلول به على صدق الرسالة وصحة النبوة التي رفعت علام الحق، وأقامت منار الدين وأزالت شبه الكفر ببراهينها، وهتكت حجب الشكل بيقينها " ³ حيث استعمل المؤلف باعتباره المرسل هنا حجة الوصف بتوظيف اسم الفاعل "الناطق" و" الهادي" إذ " يعتبر اسم الفاعل من نماذج الوصف التي يدرجها المرسل في خطابه بوصفه حجة ليسوغ لنفسه إصدار الحكم الذي يريد،

1 - مسعود صحراوي : التداولية عند علماء العرب : دار الطليعة للطباعة والنشر و بيروت دت : ص 40، 41،

42

2 - عبد الهادي بن ظافر الشهري : استراتيجيات الخطاب: ص : 478 – 486

3 - نفسه : ص 2

لتنبني عليه النتيجة التي يرومها " ¹ كما وصف كتاب الله موظفا اسم المفعول " المدلول " حيث "يصنف اسم المفعول على أنه من الأوصاف الحجاجية المستعملة " ² من أجل أن يفتن بعلو شأن كتاب الله من وراء ذلك الإقناع بأهمية علم البلاغة الذي أفرد له تصنيف هذا الكتاب.

ثم واصل عرض حججه في نفس المقصد فقال: " وقد علمنا أن الإنسان إذا أغفل علم البلاغة و أخل بمعرفة الفصاحة لا يقع علمه بإعجاز القرآن من جهة ما خصه الله به من حسن التأليف ... وإنما يعف إعجازه من جهة عجز العرب عنه وقصورهم عن بلوغ غايته " ³ حيث وظف المرسل هنا حجة التعليل عن طريق توظيف " التركيب الشرطي من أجل الربط بين المقدمة التي تتمثل في قوله : " أغفل علم البلاغة، وأخل بمعرفة الفصاحة " والنتيجة في قوله : " لم يقع علمه بإعجاز القرآن ... " ⁴ ولم يكتف بهذه الحجج بل ساق المؤلف حجة أخرى فقال : " وقبيح لعمرى بالفقيه المؤتم به، والقارئ المهتدي بهديه والمتكلم المشار إليه في حسن مناظرته، وتمام آله في مجادلته، وشدة شكيمته في حجاجه، وبالعربي الصليب والقرشي الصريع ألا يعرف إعجاز كتاب الله تعالى إلا من الجهة التي يعرفه منها الزنجي والنبطي، أو أن يستل عليه بما استدل به الجاهل الغني " ⁵ ونرى هنا أن المرسل حاول أن يشوه صورة الفقيه وقارئ القرآن العارف به والخطيب وذو اللسان العربي أن يجعل علم البلاغة وأن يكون إدراكه للقرآن مساويا لغير العربي أو الجاهل باعتبار أن المذكورين هنا يفترض في نظر المؤلف أن يكونوا أعلم من غيرهم لإعجاز القرآن والغاية من اعتماد هذه الحجة هو عدم ترك المجال أمام المرسل إليه لاختيار آخر غير الذي يرمي المرسل إلى تحقيقه . في سعي أبي هلال العسكري لإقناعه المرسل إليه لضرورة معرفة علم البلاغة لإدراك إعجاز القرآن الكريم، عرض مجموعة من الحجج ثم ربط بينها باستعمال الأدوات اللغوية كالواو... وإنما ... والفاء فبدت هذه الحجج المتسلسلة كقياس واحد تمثل كل نتيجة مقدمة لما بعدها وخرج في النهاية بالنتيجة المتمثلة في قوله : " فينبغي من هذه الجهة أن يقدم اقتباس هذا العلم على سائر العلوم بعد توحيد الله تعالى و معرفة عدله والتصديق

1 - عبد الهادي بن ظافر الشهري : استراتيجيات الخطاب : ص 488

2 - نفسه : ص 489

3 - أبو هلال العسكري : الصناعتين : ص 2

4- ينظر عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب : ص 408

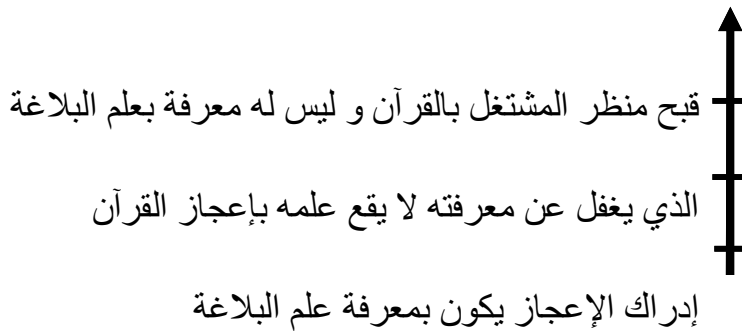
5 - أبو هلال العسكري : الصناعتين : ص 2

بوعده ووعيده على ما ذكرناه إذ كانت المعرفة بصحة النبوة تتلو المعرفة بالله جال اسمه "1
وقد نتجت عن ثلاث مقدمات هي :

- 1 - إدراك إعجاز القرآن الكريم يكون بمعرفة علم البلاغة.
- 2 - الذي أغفل علم البلاغة وأخل بالفصاحة لم يقع علمه بإعجاز القرآن الكريم .
- 3 - قبح حال المشتغل بالقرآن الكريم (الفقيه، الخطيب، النحوي) الذي يتساوى في إدراكه له مع غير العربي أو الجاهل لجهله المعرفة بالبلاغة والفصاحة .

وقد جاءت هذه المقدمات مرتبة ترتيبا تصاعديا وصولا إلى النتيجة وهو ما يسمى بنظرية السلم الحجاجي. بحيث تصبح العلاقة بين الدعوى وهي هنا إثبات أهمية علم البلاغة والحجة " علاقة شبه منطقية إلى حد ما، وذلك بالرغم من أنها تتجسد ... من خلال الأدوات اللغوية، فيتمثل صلب فعل الحجاج في تدافع الحجج وترتيبها حسب قوتها ... ولذلك نرتب المرسل الحجج التي يرى أنها تتمتع بالقوة اللازمة التي تدعم دعواه "2 وهو ما فعله المؤلف من خلال مقدمته حيث يمكن تمثيل حججه في السلم الحجاجي كما يلي :

علم البلاغة يأتي بعد توحيد الله والمعرفة بصحة النبوة



فضرورة معرفة علم البلاغة لإدراك إعجاز القرآن هي حجة أولى على مكانة هذا العلم، وعدم إدراك الإعجاز للغافل عن معرفة علم البلاغة يمثل حجة ثانية وهي أقوى من الأولى،

1 - أبو هلال العسكري : الصناعتين : ص 2
2 - عبد الهادي بن ظافر الشهري : استراتيجيات الخطاب : ص 500

أما بشاعة حال المشتغل بالقرآن الكريم وهو لا يحيط بمعرفة هذا العلم فهو أقوى الحجج على مكانة علم البلاغة ورتبته التي تأتي بعد توحيد الله والمعرفة بصحة النبوة .

بعد تبرير تأليف الكتاب في علم البلاغة بأهميته في إدراك إعجاز القرآن انتقل أبو هلال العسكري إلى مبرر آخر وهو فضله في التمييز بين الرديء والحسن من الكلام حيث قال : " ولهذا العلم بعد ذلك فضائل مشهورة، ومناقب معروفة، منها أن صاحب العربية إذا أخل بطلبه، وفرط في التماسه، ففاته فضيلته، وعلقت به رذيلة فوته، عفى على جميع محاسنه، وعمى سائر فضائله، لأنه إذا لم يفرق بين كلام جيد، وآخر رديء، ولفظ حسن، وآخر قبيح، وشعر نادرا، وآخر بارد، بان جهله، وظهر نقصه . وهو أيضا إذا أراد أن يصنع قصيدة، أو ينشئ رسالة وقد فاته هذا العلم مزج الصفو بالكدر وخط الغرر بالعرر، واستعمل الوحشي العكر فجعل نفسه مهزأة للجاهل وعبرة للعاقل " ¹ . وقد استعمل المؤلف هنا باعتباره مرسلا حجة مركبة وصل بين طرفيها وهي حجة تعليلية إذ جعل معرفة علم البلاغة سببا في كفاءة المرسل إليه للتمييز بين جيد الكلام ورديئه أو نظم الشعر وقد عمد إلى توظيف التراكيب الشرطية لتقوية حجته وهو ما يسمى بالتعليل السبي الذي يرد " في التراكيب الشرطية الظاهرة وذلك أدعى لتوليد حجج جديدة ذات صلة بالحجة الأولى " ² . ففي التركيب الشرطي الأول في قول المؤلف : " ... منها أن صاحب العربية إذا أخل بطلبه وفرط في التماسه، ففاته فضيلته، وعلقت به رذيلته عفى على جميع محاسنه و عمى سائر فضائله وهو أيضا إذا أراد أن يصنع قصيدة، أو ينشئ رسالة، فذهاب فضائل ومحاسن العلم نتيجة لعلق الرذيلة وفوات الفضيلة بصاحبه . كما يمثل مقدمة لنتيجة أخرى هي عدم قدرته على التفريق بين جيد الكلام ورديئه وهذه مقدمة لنتيجة أخرى هي الإبانة عن الجهل وظهور النقص. وقد فاته هذا العلم مزج الصفو بالكدر وخط الغرر بالعرر، واستعمل الوحشي العكر فجعل نفسه مهزأة للجاهل وعبرة للعاقل " . فمزج الناثر أو الشاعر بين الصفو والكدر واستعمال الوحشي العكر من اللفظ أثناء التأليف أو النظم نتيجة لفوات هذا العلم عند صاحبه وهذه النتيجة تمثل مقدمة لنتيجة أخرى هي كونه مهزأة للجاهل وعبرة للعاقل وقد وصل المؤلف بين هذه الحجج المتسلسلة عن طريق العطف بالواو والفاء وكذا أدوات التعليل لأن، وقد صاغها بطريقة لا تترك المجال للشك أمام المرسل إليه أو التفكير بالتراجع عن السعي

1 - أبو هلال العسكري : الصناعتين : ص 2 - 3

2 - عبد الهادي بن ظافر الشهري : استراتيجيات الخطاب : ص 480

من أجل تحصيل هذا العلم المهم في نظر المرسل، لأنه لم يكتف بهذه الحجة التعليلية فقط وإنما دعمها بتوظيف شاهد شعري يثبت صحة النتائج التي توصل إليها حيث أورد بيتين لابن جحدر في قوله :

" حلفت بما أركلت حوله *** همرجلة خلقها شيطم

وما شبرقت تنوفية *** بها وحي الجن زيزيم"¹

فحكم عليه بناء على ذلك بقوله : " وضره الغريب الذي أتقنه ولم ينفعه، وحطه ولم يرفعه، لما فاته هذا العلم وتخلف عن هذا الفن"².

نستنتج أن أبا هلال العسكري اعتمد الحجاج عن طريق تبني استراتيجية الإقناع في سياق الدفاع عن علم البلاغة والفصاحة قصد إقناع المرسل إليه بضرورة تحصيل هذا العلم و تبرير موقفه المتمثل في تأليف كتابه هذا في التنظير لعلم البلاغة وذلك في الجزء الأول من مقدمته، بينما عمد في الجزء الثاني منها إلى وصف مضمون الكتاب .

وفي هذا الكتاب "اعتمد العسكري على التراث النقدي للمتقدمين؛ فاستفاد منه في تقديم عدد من الوصايا لإعداد نص شعري أو نثري، وبيان ماهو مشترك بينهما كالأشكال البلاغية، فجعل كتابه في عشرة أبواب، الأول للبلاغة وحدودها، والثاني لتمييز جيد الكلام من رديئه، والثالث في معرفة صفة الكلام وترتيب الألفاظ، والباب الرابع في حسن النظم وجودة الرصف، وخصص الباب الخامس للإيجاز والإطناب، والباب السادس للسراقات الشعرية، وعقد السابع للتشبيه، والثامن للسجع، وعرض لفنون البديع في التاسع، أما العاشر فوقف فيه عند حسن المبادئ والمقاطع وجودة القوافي وحسن التخلص من غرض إلى غرض"³. فهو بذلك يعبر عن اتجاه صاحبه بالسعي للتنظير لعلم البلاغة وأسس صناعة الشعر والنثر.

1 - أبو هلال العسكري : الصناعتين : ص 3

2 - نفسه : ص 3

3 - الموسوعة العربية العالمية

2 - تبرير التصنيف :

لم يكن الحجاج سمة غالبية على مقدمات المؤلفين المغاربة، إلا ما كان تبريرا لاختيار منهج معين التصنيف أو طريقة ترتيبه المختارات الأدبية في متن الكتاب أو حتى التصنيف بدل التأليف ومنها:

❖ التبرير بحجة إحداث المتعة لدى المرسل إليه والمتمثل في القارئ ومن ذلك نجد ابن عبد ربه يقول في تبرير حذف الأسانيد فقال: "على أن عامة من ذكرته في هذا الديوان، لم أجد له أخبارا موضوعة، ولا أشعارا مجموعة تفسح لي طريق الاختيار منها، إنما انتقدت ما وجدت، وخالست في ذلك الخمول، ومارست هنالك البحث الطويل، والزمان المستحيل حتى ضمنت كتابي هذا من أخبار هذا الأفق، ما لعل سأربي به عل أهل المشرق"¹ وقد وظف المؤلف هنا حجة التبرير أو التعليل حيث برر باستعماله للمفعول لأجله: طلبا، هربا الذي يعتبر "من الأدوات اللغوية التي يستعملها المرسل لتركيب خطابه الحجاجي"² حيث برر المرسل هنا اعتماد حذف الأسانيد في الأخبار التي ذكرها في كتابه بالسعي في التخفيف على القارئ كما برر طريقته في تصنيف مختاراته باختيار القارئ حيث قال: "فتطلبت نظائر الكلام وأشكال المعاني وجواهر الحكم وضروب الأدب ونوادر الأمثال قرنت كل جنس منها إلى جنسه فجعلته بابا على حدة ليستدل الطالب للخبر على موضعه من الكتاب ونظيره في كل باب"³ حيث لجأ المرسل هنا إلى حجة التعليم عن طريق الأداة اللغوية المتمثلة في لام التعليل، وذلك لتبرير منهجه في تصنيف مادة الكتاب وهو وضع الأجناس المتشابهة في باب واحد لتسهيل عملية البحث لدى قارئ كتابه هذا. وفي مقدمة زهر الآداب نجد أبا إسحاق الحصري يبرر منهجه في تصنيف مادة كتابه حيث قال: "... فالحق الشكل بنظائره وأعلق الأول بآخره وتبقى منه بقية أفردها في سائره ليسلم من التطويل الممل والتقصير المخل"⁴ فالمؤلف باعتباره مرسلا يبرر فعل التصنيف بقصد سلامة كتابه من التطويل أو التقصير وذلك بتوظيف لام التعليل؛

1 - أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني الاندلسي: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: تح: د/ إحسان عباس؛ ج 1 دار الثقافة، بيروت 1997: ص12

2 - استراتيجيات الخطاب: ص

3 - العقد الفريد: ص5

4 - زهر الآداب: ص 2

كما برر بتوظيف كلمة السبب حينما تحدث عن سبب تأليفه لهذا الكتاب فقال : " وكان السبب الذي دعاني إلى تأليفه ما رأيته من رغبة أبي الفضل العباس بن سليمان ... وسألني أن أجمع له من مختارها كتابا يكتفي به عن جملتها " ¹ وقد لجأ المؤلف هنا إلى حجة التعليل باستعمال أداة لغوية.

كما يظهر بعض الحجاج من خلال مقدمة ابن بسام الشنتريني في الذخيرة ومنه :
❖ تبرير رفضه لما كان سائدا في عصره من تقليد أدباء الأندلس لأهل المشرق حيث استعمل حجة الوصف لإبراز قيمة الأدب الأندلسي والخط من قيمة الأدب المشرقي فقال واصفا آداب الأندلسيين : " إن ثمرة هذا الأدب العالي الرتب، رسالة تنثر وترسل وأبيات تنظم وتفصل تنتال تلك انثيال القطار على صفحات الأزهار، وتتصل هذه اتصال القلائد على نحور الخرائد، ومازال في أفقنا هذا الأندلسي القصي إلى وقتنا هذا من فرسان الفنين وأئمة النوعين، ... نثر لو رآه البديع لنسي اسمه، أو اجتلاه ابن هلال لولاة حكمه ونظم لو سمعه كثير ما نسب ولا مدح، أو تتبعه جرو لما عوى ولا نبج " ² ثم وصف أدب المشاركة قائلا : " ... وأخبارهم الباهرة، وأشعارهم السائرة مرمى القصية ومناخ الرذية لا يعمر بها جنان ولا خلد ولا يصرف فيها لسان ولا يد " ³ وقد وصف المؤلف كلا الأدبين ليقنع بجودة أدب الأندلسيين مبررا بذلك اقتصاره على أدبهم في كتابه هذا .

❖ تبرير تقديم المحدث على القديم : حيث أشار المؤلف إلى تفضيل أدب المحدثين في الأندلس على أدب القدماء في المشرق ، وقد برر ذلك بتكرار القديم إلى درجة الملل منه : " إذ كل مردد ثقيل وكل متكرر مملول، وقد مجت الأسماح : " يا دار مية بالعلياء فالسند ، وملت الطباع لخولة أطلال ببرقة تهمد ... " ⁴ كما برر أيضا بقوله أن الإحسان والفضل غير مقتصر على زمن دون زمن وأن اهتمام المتأخرين بكتب المتقدمين يؤدي إلى ضياع الكثير من أدب المحدثين فقال : " والإحسان غير محصور، وليس الفضل على زمن بمقصور وعزيز على الفضل أن ينكر، تقدم به الزمان أو تأخر، ولحى الله قولهم: الفضل للمتقدم ، فكم دفن من إحسان وأخمل من

1- زهر الآداب : ص 2

2 - الشنتريني : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة : ص 11

3 - نفسه : ص 11

4 - نفسه : ص 13

فلان ولو اقتصر المتأخرون على كتب المتقدمين لصاع علم كثير و ذهب أدب غزير"¹ نستنتج أن حجة المؤلف منطقية وهي مشابهة لحجة ابن قتيبة في مقدمة كتاب الشعر والشعراء حينما اعتمد مقياس الجودة في تصنيف الشعراء بغض النظر عن كونهم محدثين أو قدماء .

❖ تبرير حذف أو إثبات الأسانيد حيث برر ابن رشيقي إسناد الأقوال إلى أصحابها فيقول: "... إلا ما تعلق بالخبر وضبطته الرواية فإنه لا سبيل إلى تغيير شيء من لفظه، ولا معناه ليؤتى بالأمر على وجهه"² بينما برر ابن عبد ربه حذفه الإسناد في الأخبار قائلا: " وحذفت الأسانيد من أكثر الأخبار طلبا للاستخفاف والإيجاز وهربا من التثقل والتطويل لأنها أخبار ممتعة وحكم ونوادر"³ .

1 - المصدر السابق : ص 14
2 - ابن رشيقي : العمدة : ص 12، 13
3 - ابن عبد ربه : العقد الفريد : ص 5 ، 6

خاتمة

خاتمة :

تتقلت من خلال هذه الدراسة بين درر خلفها علماء كثيرا ما اتهموا بالتطبيق لمناهجهم دون التنظير لها و حاولت أن أتقرب من مقدمات مؤلفاتهم علني أعثر على ما يكذب هذه الاتهامات .

ومن خلال استقراء وتحليل بعض العينات من مقدمات المصادر التراثية وجدت بأن مؤلفيها اعتمدوا استراتيجية في الخطاب تنوعت بين الوصف والحجاج. ومن خلال بيانات الوصف أعلن مؤلفو المصادر التراثية عن مواقفهم النقدية والملاحظ أنهم اشتركوا في الإشارة إلى معظم القضايا التي شغلت النقد التراثي ولكن كل واحد منهم ركز على قضية هيمنت على القضايا الأخرى ف :

- ❖ تميز ابن سلام في طريقته في ترتيب الشعراء إلى طبقات وتحديد معايير الفحولة.
- ❖ تميز ابن قتيبة من خلال اعتماد معيار الجودة للفصل في قضية الصراع بين القدماء والمحدثين.
- ❖ وتميز الجرجاني في الإلان عن ميلاد نظرية النظم للفصل في قضية اللفظ والمعنى .
- ❖ وتميز ابن طباطبا في سعيه للتنظير في علم الشعر بموقفه المميز في قضية السرقات وهو نفس مبدأ علم التناص في العصر الحديث.
- ❖ أما قدامة بن جعفر فقد تميز بتأسيس علم في نقد الشعر وهو علم تخليص جيد الشعر من رديئه .
- ❖ تفرد السجلмасي من خلال جمعه بين التصنيف المنطقي بأنواعه وأجناسه وعلم البلاغة العربية حيث مثل اتجاها منفردا ميز المدرسة المغربية ضمن مجموعة من العلماء الذين برزوا في عصره.

كما أفصحت بعض مقدمات مصنفات المغاربة إلى ظاهرة التنافس الفكري بين المشاركة والمغاربة التي أدت إلى تطور التصنيف وإثراء المكتبة العربية بكم هائل منها.

أما بيانات الحجاج فقد أفصحت عن استراتيجيات المؤلفين في الإقناع وعن أهم البراهين والحجج من أجل إقناع المرسل إليه بأرائهم.

فاعتمد ابن قتيبة في مقدمة تأويل مشكل القرآن حججا نقلية أغلبها استشهادات من القرآن الكريم من أجل إقناع الطاعنين في إعجاز القرآن الكريم معتمدا منهج التأويل في تحليل آيات القرآن الكريم وإثبات الفهم الخاطئ لهؤلاء بالإضافة إلى بعض الحجج المنطقية منطلقا من خلفيته كمسلم.

وفي نفس السياق نجد الجرجاني يوظف استراتيجية الإقناع بإعجاز القرآن معتمدا حججا منطقية منطلقا من التسليم بإعجاز القرآن إثبات قيمة الشعر وعلم النحو كسمتين لفصاحة العرب وعجزهم عن الإتيان بمثله كدليل على إعجازه وقد ربط إعجاز القرآن بالنظم الفكرة التي تعتبر بمثابة بيان عن ميلاد نظرية النظم التي اشتهر بها.

تتشابه المقدمتين من خلال هيمنة الخطاب الإقناعي ومخاطبة المرسل إليه بتشابه يتصف بالإنكار والجحود وتشتركان في سياق الدفاع عن إعجاز القرآن الكريم؛ ولكنهما تختلفان في استراتيجية كل مرسل في الوصول إلى إثبات إعجاز القرآن فابن قتيبة اعتمد على حجج صناعية منقولة غالبا من القرآن الكريم وبعضها من الحديث الشريف، أما الجرجاني فقد اعتمد في محاولة إقناع المرسل إليه على حجج منطقية وفق القياس الصوري واستخلاص النتائج من المقدمات من خلال التركيز على الجوانب اللغوية .

كماوظف الحجاج في الإبانة عن الموقف النقدي حيث أبان ابن قتيبة عن موقفه المتمثل في اعتماد الجودة في تصنيفه للشعراء من خلال كتاب " الشعر والشعراء" وابن طباطبا عن موقفه المتميز حول السرقات الشعرية كما اعتمده أبو هلال العسكري في تبرير التأليف في علم البلاغة وكذا تبرير فعل التصنيف من طرف ابن عبد ربه وابن بسام الشنتريني والحصري.

ومن خلال تحليل هذه المقدمات يمكن استنتاج مايلي :يمكن تصنيف مقدمات المصادر التراثية إلى ثلاثة أنواع هي :

✓ مقدمات ذات بيانات حجاجية : مثل مقدمتي تأويل مشكل القرآن ودلائل الإعجاز.

✓ مقدمات بيانات حجاجية وصفية : مثل مقدمة كتاب الصناعاتين.

✓ مقدمات وصفية : مثل مقدمة نقد الشعر لقدامة بن جعفر.

وهكذا تمت هذه الدراسة بعون الله و التي أتمنى أن تكون قد أضاءت نقطة من بحر تراثنا
الزاهر بالكنوز التي تنتظر الاستكشاف على أيدي طلبة العلم .

قائمة المصادر و المراجع

قائمة المصادر والمراجع :

- ✓ إيدير ابراهيم : الآليات الحجاجية في " الأدب الكبير " لابن المقفع – دراسة تداولية - : اليوم الدراسي حول المناهج : منشورات مخبر الممارسات اللغوية في الجزائر
- ✓ الأندلسي – أحمد بن عبد ربه : العقد الفريد: تح: د/ مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، ط1، لبنان 1973
- ✓ بلانشيه فليب: التداولية من أوستن إلى غوفمان : تر : صابر الحباشة: دار الحوار للنشر و التوزيع ، ط1، 2007
- ✓ الجرجاني – عبد القاهر: دلائل الإعجاز: تح : د/ محمد التنجي، دار الكتاب الغربي، ط1، بيروت 2005
- ✓ ابن جعفر- أبو الفتح قدامة: نقد الشعر، تح: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت دت
- ✓ جمال الدين بن شيخ : الشعرية العربية، تر: مبارك حنون وآخران، دار توبقال للنشر، ط1، 1996
- ✓ الحباشة صابر: التداولية و الحجاج ، صفحات للدراسات و النشر، ط1 ، دمشق 2008
- ✓ حسن عزة : من معالم التحول والتقدم في المغرب: إحياء ذخائر التراث الأدبي المغربي ، عن شبكة الانترنت بتصرف
- ✓ الحصري أبو إسحاق: زهر الآداب: WWW.al-mostafa.com
- ✓ حنفي حسن عابد ، محمد عابد الجابري: حوار المشرق و المغرب المؤسسة العربية للدراسات ونشر
- ✓ رزق صلاح : أدبية النص، د.ط ، دار غريب للطباعة و النشر و التوزيع ، القاهرة 2002
- ✓ السجلماسي- أبو محمد القاسم الأنصاري: المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع: تح: علال الغازي، مكتبة المعارف ، ط1، الرباط 1980
- ✓ ابن سلام- محمد الجمحي : طبقات فحول الشعراء: تح محمود شاكر، منشورات المدني 1974
- ✓ سلطان- منير: ابن سلام و طبقة فحول الشعراء: منشأة المعارف، الإسكندرية، دت
- ✓ الشنتريني أبو الحسن علي بن بسام الاندلسي: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة : تح: د/ إحسان عباس؛ ج 1 دار الثقافة، بيروت 1997
- ✓ صحراوي مسعود : التداولية عند علماء العرب : دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت دت
- ✓ صمود- حمادي: التفكير البلاغي عند العرب، منشورات كلية الآداب ، ط2، منوبة 1994
- ✓ صمود- حمادي و فريق من المؤلفين العرب : أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، منشورات كلية الآداب منوبة ، دت

✓ ضيف شوقي : الفن ومذاهبه في الشعر العربي، دار المعارف، ط 11، القاهرة

✓ ابن طباطبا- أحمد بن محمد: عيار الشعر، تح: د/ محمد زغلول سلام، منشأ المعارف، الإسكندرية د ت

✓ عامر- فتحي أحمد: من قضايا التراث العربي، منشأة المعارف، الإسكندرية د ت

✓ عباس- إحسان: تاريخ النقد الأدبي، دار الشروق ، ط1 عمان 2006

✓ العسكري- أبو هلال الحسن بن عبد الله : كتاب الصناعتين الكتابة والشعر: ج 1 تح: محمد

أمين الخانجي، نضارة المعارف الخانجية، ط1،

الأستانة 1320 هـ

✓ العمري - محمد: - في بلاغة الخطاب الإقناعي، إفريقيا الشرق، ط 2 المغرب 2002

- البلاغة العربية أصولها وامتداداتها : د ط ، أفريقيا الشرق 1999

✓ العشي- عبد الله: زحام الخطابات، دار الأمل تيزي وزو 2005

✓ الفاخوري – حنا : تاريخ الأدب العربي في المغرب، المكتبة البوليسية، ط1، بيروت 1982

✓ فضل صلاح : بلاغة الخطاب وعلم النص، عالم المعرفة الكويت 1992

✓ القاموس المحيط : dorar@gawab.com/info@onelketab.net

✓ ابن قتيبة- أبو محمد عبد الله بن مسلم: - تأويل مشكل القرآن، تح السيد أحمد صقر، دار

التراث، ط2، القاهرة 1973

- الشعر و الشعراء: دار الثقافة، بيروت ، د ت

✓ القيرواني- أبو علي الحسن بن رشيق: العمدة في محاسن الشعر، تح محمد عبد القادر أحمد عطا، ج1

دار الكتب العلمية، بيروت

✓ كوين جون: اللغة العليا والنظرية الشعرية ، تر د. أحمد دريش، المجلس الأعلى للثقافة، ط2، 2000

✓ المبخوت شكري : نظرية الحجاج في اللغة ، ضمن(أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من

أرسطو إلى اليوم) إشراق حمادي صمود ، كلية الآداب ، جامعة الآداب والفنون

و العلوم الإنسانية ، د ت

✓ مطلوب- أحمد: عبد القاهر الجرجاني : بلاغته ونقده ، وكالة المطبوعات ، ط1 : بيروت 1973

✓ موافي- عثمان: الخصومة بين القدماء والمحدثين في النقد العربي القديم دار المعارف الجامعية ط3 ،

الإسكندرية 2000

✓ مونتانو - دومينيكا : المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطب، تر محمد يحياتن، منشورات الاختلاف

ط 1 2005

- ✓ هالين- فيرناند وآخرون: بحوث في القراءة والتلقي، تر: خير البقاعي، مركز الإنماء، دب
✓ وهبة- مجدي ، كامل المهندس : معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان ، ط 2

بيروت 1994

- ✓ يوسف- نور عوض: نظرية النقد الأدبي، دار الأمين للنشر والتوزيع، ط 1 القاهرة 1994

الفهرس

الفهرس

03مقدمة

08مدخل

08. I - البيان الأدبي.....

11 II - المقدمة عتبة من عتبات النص.....

16 III - العنوان عتبة من عتبات النص.....

الفصل الأول : بيانات الوصف

24. I - قضايا الشعر والشاعر.....

24. 1 - قضايا الشعر.....

31 2 - قضايا الشاعر.....

35 II - قضايا أثارت الصراع.....

35 1 - الصراع بين القدماء والمحدثين.....

40 2 - قضية اللفظ والمعنى.....

47 3 - قضية السرقات.....

52 4 - المركزية بين المشرق والمغرب.....

55 III - هيمنة النسق المنطقي في التأليف والتصنيف.....

الفصل الثاني : بيانات الحجاج

I - مقصد الدفاع عن القرآن الكريم.....	62
1 - مقدمة تأويل مشكل القرآن.....	62
2 - مقدمة دلائل الإعجاز.....	71
3 - الخطاب الإقناعي بين مقدمتي تأويل مشكل القرآن ودلائل الإعجاز.....	76
II - قضايا نقد الشعر.....	78
1 - مقدمة الشعر والشعراء.....	78
2 - مقدمة عيار الشعر.....	80
III - تبرير التأليف والتصنيف	84
1 - تبرير التأليف.....	84
2 - تبرير التصنيف	90
خاتمة	94
قائمة المصادر والمراجع	97